

## في عصر الدول والإمارات

يبتدئ هذا العصر سنة ٣٣٤ للهجرة ، ويمتد حتى العصر الحديث ، وكان المؤرخون للأدب يدخلون منه نحو ثلاثة قرون في العصر العباسي الثاني منتهين به في سنة ٦٥٦ للهجرة ، حين أغار التتار على بغداد . وكانوا يسمون الحقب التالية لذلك حتى العصر العثماني باسم عصر المغول . وهو صنيع خاطئ ، فإن الخلافة العباسية منذ سنة ٣٣٤ تنقلت ظلالتها ، حتى لا تكاد تمتد إلى ما وراء بغداد إلا امتداداً اسمياً ، إذ انقسم العالم العربي دولاً وإمارات ، كدول الفرس في إيران وخراسان وأفغانستان ، وهي كثيرة ، ومثل إمارات البويهيين والسلاجقة في العراق ، ومثل دول الفاطميين والأيوبيين في مصر والشام ، بالإضافة إلى الدول الكثيرة التي نشأت في الأندلس والمغرب . وكانت هذه الدول والإمارات مستقلة عن بغداد ، فمن الخطأ أن تُحْمَلَ عليها وتدرس تابعة لها فيما كان يدخل في العصر العباسي الثاني من سنة ٣٣٤ إلى سنة ٦٥٦ . وحقاً أن عصر الدول والإمارات بذلك يكون عصرًا طويلاً ، إذ يشمل أيضاً العصرين : المغولي الممتد من سنة ٦٥٦ إلى سنة ٩٢٢ والعصر العثماني الممتد من سنة ٩٢٣ إلى مطلع العصر الحديث . وهو عصر متعدد فيه الأقاليم والبيئات متعدداً واسعاً كبيراً ، غير أن هذا التعدد لم يحمل تفاعلاً بين شعوب تلك الدول والإمارات في الثقافة والشعر ، فقد كان الكتاب من الكتب في هذا العصر الطويل يؤلف مثلاً في نيسابور بخراسان ويدرس في بغداد ودمشق والقاهرة وتونس وفاس وقرطبة . وكان أحد العلماء في تلك البلدان يشرحه ، وقد تُوِّفَّ له فيها شروح كثيرة ، وبذلك كانت الثقافة العلمية مشتركة بين أهل كل تلك البلاد .

وبالمثل كان الشعر ، فلم يكن يظهر ديوان لشاعر كبير ، حتى يتلقفه النسّاح والرواة في بلدان العالم العربي ويذيعونه وينشرونه في الناس ، وكأنه ديوان للأمة العربية جميعها لا لبلد بعينه . ولعل في ذلك ما يصور - من بعض

الوجه - وحدة الأمة العربية ، وحدة خالدة على مر العصور ، وهي وحدة كان الشعر دائماً ترجمانها ومرآتها الصافية .

وهياً ذلك لأن تظل العربية إلى اليوم اللغة الأدبية لكل البلدان العربية ، وحقاً أخذ الناس في كل تلك البلدان يتحدثون بلغات غير معربة ، هي اللغات العامية التي تعددت بتعدد البيئات والأقاليم ، فلكل بيئة ولكل إقليم لغة عامية . ومن الخطأ أن نسميها لغات ، لأنه ليس لأى منها نحو ولا قواعد للنطق والتعبير . ولذلك لم تشارك الفصحى في العلم ، بل ظل العلم في كل البلدان العربية يدرس بالفصحى . وكما ظلت لغتنا العلمية ظلت لغتنا الروحية الدينية ، فهي لغة القرآن الكريم الذي كان يعلم في الكتاتيب بالقرى والمدن ، وكان أئمة المساجد - ولا يزالون - يخطبون الناس ويعظونهم بلغته ، والمسلمون في كل بقاع الأرض يؤدون بها صلاتهم . وكانوا يختلفون في المدن الكبرى إلى حلقات الأساتذة في المساجد حيث يلقون محاضراتهم في التفسير والفقهاء وعلم الكلام وفي النحو والعلوم اللغوية وفي الأدب وفنونه الثرية والشعرية ، ومن وراء ذلك كانت المكتبات مفتحة الأبواب زاخرة رفوفها بالتراث من كل لون .

فكان طبيعياً أن تظل العربية حية في كل مكان وأن تظل هي العملة اللغوية المتداولة بين جميع العرب على اختلاف بلدانهم ، وأن يظل الشعراء يتخذونها هي - لا العامية - لسانهم الذي يؤدون به عواطف شعوبهم وأهواءها . وحقاً وجد شعر عامي . كما مر بنا في غير هذا الموضع ، ولكنهم كانوا يستخدمونه استخدام النوادر ، ولذلك جعلوه للهزل والتعابث . أما في الجدد حين لا يكون الشعر فكاهة ، بل يكون احتمالاً لتبعات الحياة ومشاركة في مشكلاتها التي تخوضها الأمة ، فإنهم يستخدمون الفصحى . وكانت قريبة منهم ومن قلوبهم وأقنعتهم ، بل أيضاً من قلوب الأمة العربية وأقنعتهم ، فهي دائماً تلقاء الأسماع والآذان . وليس ذلك فحسب ، فقد كانت هي التي تغذى القلوب والأرواح ، بما تحمل من آيات الذكر الحكيم ، وما تحمل أيضاً من الأشعار التي تعبر أجمل تعبير عن وجدان الأمة وانطباعاته الشعبية . فلم تكن الفصحى ولا أشعارها ترتفع عن مستوى الشعب ، بل كانت تقرب منه قريباً شديداً ، ومن أكبر الأدلة على ذلك

أنا نجد لهذا العصر في كل بلد عربي شعراء أميين لا يقرءون ولا يكتبون يشاركون مشاركة خصبة في الشعر العربي ، غير واجدين في ذلك أى مشقة أو أى عسر . ولن نستطيع أن نعرض في هذا البحث المجمل لشعر هذا العصر في مختلف بلدانه وأقاليمه ، ولذلك سنكتفي بالحديث عنه في العراق ، وفي مصر والشام ، وفي الأندلس .

وأول ما نستقبل منه في العراق شعر المديح ، وأكبر شعرائه هناك ، بل في كل البلدان العربية وفي كل العصور على الإطلاق المتنبي شاعر الكوفة ، الذى كأنما عاش في النصف الأول من القرن الرابع الهجرى ، ليستشعر الحزن التى كانت تُصَبّ على رءوس الأمة العربية لعصره ، فإذا إمبراطوريتها الضخمة تتصدع وتتفرق دولاً وإمارات شتى ، ويسلب الأعاجم العرب صولجان الحكم ، ويعسفون بالناس عسفاً شديداً ، ويعيشون ببغداد للهو والقصف ؛ بينما البيزنطيون يغيرون في الشمال ولا مغيث من جيوشهم ولا معين ، وبينما قرامطة البحرين يغيرون على مسقط رأسه الكوفة من حين إلى حين منزلين بها من الكوارث المفجعة ما تشيب له الولدان . ويرحها في مطالع شبابه إلى بغداد ، ويتركها مسرعاً إلى الشام وبواديها ونفسه تجيش بثورة عارمة على حكام بغداد وما يذيقون الشعب من الجور والظلم والعسف ، ولا يُخفى ثورته ، بل يعلنها إعلاناً ، لممدوحيه ، وكأنه يريد أن يستنهضهم معه للقيام بثورة عنيفة ، على شاكلة قوله :

وإنما الناس بالملوك وما تفلح عربٌ ملوكها عجمٌ  
لا أدبٌ عندهم ولا حسبٌ ولا عهدٌ لهم ولا ذمٌ

فهو إنما يثور على الحكام الأعاجم من أجل العرب وإنه لياسى لهم أن يرضوا بحكمهم وما ينزلونه بهم من عسف وقهر ، وإنه ليصرخ فيهم أن يزيلوا هذا الحكم الجائر ويسقطوه ، كى يعود الحكم عربياً كما كان ، وكى يتخلصوا من سلطان الرقيق الأعجمى الذى بغى وطنى ، وأحال حياتهم بؤساً وشقاءً وذلاً ومهانة . وتمر به في أثناء هذه الثورة والدعوة الخطيرة فترات بأس كثيرة ، إذ يجد الناس من حوله لا يثورون ولا يفكرون في ثورة ، وكأنما خدّهم حكامهم الأعاجم ،

وكان من أشد هذه الفترات عليه الفترة التي قضاهها في قرية بالقرب من بعلبك تسمى « نَحْلَةَ » إذ لم يجد عند أهلها أذنًا صاغية لدعوته ، ففضى ينشد محزوناً :

ما مُقَامِي بِأَرْضِ نَحْلَةَ إِلَّا كَمُقَامِ الْمَسِيحِ بَيْنَ الْيَهُودِ  
مَفْرَشِي صَهْوَةَ الْحِصَانِ وَلَكِنْ قَمِيصِي مَسْرُودَةٌ مِنْ حديدِ  
أَنَا فِي أُمَّةٍ تَدَارِكُهَا إِلَّا هُ غَرِيبٌ كَصَالِحٍ فِي ثَمُودِ

وهو يقول إن الناس يصدون عنه كما كان يصد اليهود عن عيسى عليه السلام ، وكما صدت ثمود عن صالح عليه السلام ، وإنه ليقدم لهم المثل الحربى من نفسه ، فهو دائماً على ظهر فرسه لابس درعه شاكى السلاح متصدِّد للحرب والنزال ، فإما الحياة الكريمة وإما الموت الشريف . وكان تصويره لنفسه في هذه الأبيات بالمسيح والنبي صالح سبباً في اتهام بعض معاصريه له بأنه ادعى النبوة في بادية الشام ، وهو اتهام باطل . وربما كان لقبه المتنبي الذي غلب عليه هو الذي جعلهم يظنون هذا الظن الخاطئ ، وهو إنما لقب به رمزاً لعبقريته الشعرية . وهو يعلن في الأبيات أنه يتعمقه الشعور بالغرابة ، وهو شعور يبدو أنه لازمه مبكراً ، وكان سبب مفارقتة لمسقط رأسه ، ثم لبغداد والعراق جملة ، وهاهو في الشام : حواضرها وبواديها ، لا يزال يشعر بالغرابة ، إذ يرى الناس من حوله منصرفين عنه ، لا يستجيبون إليه ، كأنهم لا يريدون أن يزيحوا الظلم والعسف عن ظهورهم ، وما زال يستثيرهم مشعلاً فيهم الإحساس بكرامتهم المهيضة من مثل قوله في بعض مدائحه :

وَإِنَّمَا نَحْنُ فِي جَبَلِ سَوَاسِيَةٍ شَرٌّ عَلَى الْحَرِّ مِنْ سُقْمٍ عَلَى بَدَنِ  
لَا يُعْجِبُنَّ مَضْمِماً حَسَنُ بَزْتِهِ وَهَلْ يَرُوقُ دَفِيناً جُودَةُ الْكَفَنِ

فهو جبل يؤذى الأحرار من أمثال المتنبي الذين لا يطيقون رؤية البغي والظغيان في الحكم والذين يسارعون إلى سيوفهم ليديقوهم وبال طغيانهم وبغيهم . وحتى من يجد شيئاً من نعيم الحياة في ظلهم ينبغي أن ينهض لقتالهم ، وكيف يجد هذا النعيم وهو مضميم أشد الضيم ، إنه أشبه بميت ، فقد ماتت نفسه

العربية ، ولن تنفع ميتاً جودة كفته ، ويصيح في مدحة أخرى :

لا افتخارُ إلا لمن لا يُضامُ      مدركٌ أو محاربٍ لا ينسامُ  
واحتمالُ الأذى ورويةُ جانبِ      ه غداة تَصَوَّى به الأجسامُ  
ذلٌّ مَنْ يغبط.      الدليلَ بعيشِ  
مَنْ يَهْنُ يَسْهَلُ الهوانُ عليه      ما لجُرحٍ بميتٍ إيلامُ

فمن لحقه ضيم لا يحق له فخر ، لأنه يحمل نفساً ميتة ، إنما يفخر الحى المناضل الذى لا ينام عن ثأره ، والذى لا يحتمل الأذى ، بل يعصف بجانيه عصفاً . وما أمر حياة من يحتمل الأذى والهوان ، بل لأنها لأشبه بالموت . بل إن الموت لأخف منها احتمالاً ، ويا ويح من يقبل الهوان مرة ، فإن إحساسه بموت ، ولا يعود يشعر بأى طعنات لذل أو هوان . والمتنبى إنما كان يريد بذلك - ومثله كثير فى مدائحه - أن يستثير أمته لما وقع عليها من ظلم الحكام وضيْمهم لها ، حتى تعود إليها قوتها وبسالتها ، وتبطش بهم البطشة القاضية . وشعر المتنبى أو قل مدائحه من هذه الناحية تعد مصدراً قيماً من مصادر التاريخ لعصره ، إذ يصور فيها ظلم الحكام وخسفهم وبغيهم تصويراً لعله أقوى من تصوير كتب التاريخ السياسى ، لسبب طبيعى ، وهو أنه شارك معاصريه حياتهم السياسية بكل أوزارها ، وأحسها إحساساً قوياً ، وهو إحساس جعله يحمل تبعاتها إلى أقصى حد ، فإذا هو ينادى بالثورة على الحكام الأعاجم وتخليص الأمة منهم ، وظل يستصرخها ، لتثور معه ثورة عارمة وهو لا يهدأ ولا يفتر ، سنوات طوالاً .

وكأنما أراد القدر للمتنبى أن يستريح إلى حين من عناء هذه الدعوة التى لا تلقى سمياً ، وإذا هو يلتقى بسيف الدولة فى أنطاكية ، ويصطحبه معه إلى حلب ، ويظل عنده تسع سنوات . وكان سيف الدولة يدير حرباً طاحنة مع البيزنطيين ، وينزل بهم وبجيوشهم هزائم ساحقة ، ووجد المتنبى فيه بغيته ، إذ وجد فيه البطل العربى المثالى الذى كان ينشده ، فقد كان ينقض من إمارته الصغيرة حلب على البيزنطيين وجموعهم فيمزقها شرمزق . وكان المتنبى يغدو ويروح معه فى معاركه ، فيملؤه الفرح والابتهاج بالنصر ، ويمدحه لا بقصائد :

ل. بملاحم ، نسمع فيها قعقة السلاح ودوى المعارك من مثل قوله :

لقد أقام على أرباضِ خَرَشَنَةَ      تَشَقَى به الرومُ والصُّلبانُ والبِيعُ  
للسبي ما نكحوا والقُتل ما ولدوا      والنهب ما جمعوا والنار ما زرعوا  
مُخْلِ له المَرَجُ مَنْصُوبًا بصارخةٍ      له المنابرُ مَشْهُودًا بها الجُمُعُ  
يطمَعُ الطَّيْرُ فيهم طولُ أَكْلِهِمْ      حتى تكادَ على أحيائهم تَقَعُ

وهو يصور معركة سيف الدولة الحمداني في خَرَشَنَةَ من أرض البيزنطيين وما أنزل بضواحيها وساحاتها من سفك دماء الروم وتلطيح صلبانهم وكنائسهم بعار الهزيمة الماحقة ، وما أسرع ما سُبيت نساؤهم وقُتل شبانهم ونُهبت أموالهم وحرقت زروعهم ، واستسلمت له مدينة صارخة ، وأصبحت من ديار الإسلام ، ونُصبت بها المنابر لصلوات الجمعة . ويحمل البيت الأخير صورة رائعة ، فقد كانت الطير تنقضُّ على البقية الباقية من أحياء الروم البيزنطيين تريد أن تأكلهم أكلاً كَمًا : إذ عودها العرب أكل أشلائهم وجثثهم التي لا تزال تتناثر في العراء . وفي غفلة من غفلات الزمن استولى الروم البيزنطيون على حصن الحَدَث ، فأعدَّ سيف الدولة جيشاً كثيفاً زحف به من حلب ، والتقى به جيش الروم بالقرب من الحَدَث ، فهزموه هزيمة ساحقة ، قُتل فيها ثلاثة آلاف من الروم من بينهم صهر القائد فوكاس ، واستسلم للأسر ألاف . وأقام سيف الدولة على الحصن بين مباحج النصر حتى أعاد بناءه ، وهلل المتنبى لهذا النصر العظيم في ميميته البديعة بمثل قوله :

وقفتَ وما في الموت شكٌ لواقفٍ      كأنك في جَفَنِ الرَّدى وهو نائمٌ  
تمرُّ بك الأبطالُ كلِّمى هزيمةً      ووجهك وضاحٌ وثغرك باسمٍ  
ضممتَ جناحيهم على القلبِ ضَمَّةً      تموت الخوافى تحتها والقوادِمُ  
نثرتهم فوق «الأحيدب» نثرَةً      كما نُثِرَتْ فوق العروس الدراهم

وهو يصور بطولة سيف الدولة في المعركة وجرهته التي لم تقف عند حد ،

حتى حين اشتدت الحرب ، وحمى وطيسها ، وبلغت الروح الحلقوم ، وأحدق الموت من كل جانب ، يقول له كأنما أخذتك حينئذ سنة من النوم ، وأبطال الروم يمدون بك مطعونين مجروحين فارين من هول المعركة ، وأنت مبتسم مستبشر واثق بالنصر ، ولم تلبث أن ضمنت جناحي الجيش البيزنطي إلى قلبه ضمة مظفرة ، وكأنما هو بيدك طائر أو طير تقطعت خوافيه من الريش وظواهره ، طير مذبوح منتوف ، نثرته أنت وجيشك على جبل الأحيذب ، حتى لكأنه نثار من الدراهم نثرتموه فوق زفاف هذا النصر البهيج ، كما تنثر الدراهم فوق العروس فرحاً واستبشاراً .  
ودائماً يترأى له سيف الدولة بطلا للعروبة في عصره . وكأنما اختارته ليمثل بطولتها وفتوتها وشجاعتها ، أو كما يقول له :

إذا العربُ العَرَبَاءُ رازتْ نفوسَهَا فَانْتِ فتَاهَا والمليكَ الحُلَّاحِلُ

ورازت : اختبرت . والحلاحل : السيد الشجاع . وقد حفر المتنبي في ذاكرة العرب بهذه الأشعار ، حفرراً لا يُنسى ، انتصارات سيف الدولة البطل العربي على البيزنطيين ، انتصارات جعلتهم يستسلمون له مراراً عن يدٍ وهم صاغرون .

وواضح أن المتنبي صَوَّرَ في قصيدة المديح الانطباعات الشعبية في نفوس معاصريه إزاء بطولة سيف الدولة وجيشه الباسل ، وأيضاً إزاء حكم الأعاجم الطغاة وعسفهم وبغيهم ، وله فيهم هجاء كثير ، وهو ليس هجاء شخصياً ، وإنما هو هجاء سياسي أراد به تصوير مثالبهم وتهوين شأنهم عند الشعب حتى يثور عليهم ثورة لا تبقى منهم باقية ، من مثل قوله :

ودهرٌ نأسه ناسٌ صِغَارٌ	وإن كانتْ لهم جُثَّتُ ضِخَامُ
أَرَانِبُ غيرَ أَنهمُ ملوكُ	مفتحةٌ عيونهمُ نيامُ
بِأَجْسَامٍ يَحَرُّ القَتْلُ فيها	وما أَقرَّأنها إلا الطعامُ
وخيَلٍ لا يَخِرُّ لها طعينُ	كَأَنَّ قَنَا فواسها ثَمَامُ
ولو لم يَعْلُ إلا ذو مَحَلُّ	تعالى الجيشُ وانحط. القَتَامُ

وهو يصف ملوك الأعاجم المتحكمين في بغداد بأن نفوسهم صغيرة وإن بدوا في أجسام ضخمة ، إنهم أرناب تسنموا في غفلة الدنيا ذروة الملك ، ويخيل لمن يراهم أن عيونهم ونواظرهم مفتوحة ، وهي في نوم عميق ، كأنهم مخدرون ، لا يعرفون شيئاً من شئون الدولة ، وهم دائماً في لهو عنها ، يأكلون ويشربون ويقصفون ، ويموتون من كثرة القصف والشرب والأكل ، لا كما يموت الشجعان في الحروب ، فهم جنائز أوغاد ، وتلك خيلهم لا يسقط لها جريح في حرب ، ومن يركبونها منهم لا يحملون قتلاً ولا رماحاً ولا سيوفاً ، وإنما يحملون أعواداً من شجر التمام لا تغني في حرب ولا قتال .. وإنه لواجب على الشعب أن يثور بهم ثورة تأتي عليهم ، ولا يعرفن أحداً علو مكانهم وارتفاعه ، فهو علو الغبار على الجيش لا يلبث أن يتبدد ويذهب هباء . ويقول فيهم غاضباً :

في كل أرضٍ وطَّئَتْها أُممٌ      تُرعى بعبءِ كأنهم غنمٌ  
يستخشنُ الخرزَ حين يلبسه      وكان يُبرى بظفره القلمُ

وهو يستنهض العرب الأحرار لكي يتخلصوا من حكم عبدهم الذين قهروهم واستذلوهم ، وجعلوا حياتهم جحيماً لا يطاق من البؤس والشقاء ، وسلبوهم إنسانيتهم ، حتى لكأنهم غنم سائمة لا حول لها ولا قوة . ويسخر المتنبي سخريته مرة من هؤلاء الحكام الذين كانوا لا يعرفون سوى المعيشة الحشنة الجافية ، بل المعيشة الوحشية التي تطول فيها الأظفار ، فإذا هم يتقبلون في الحرير والنعيم ومتاع الحياة ويفرضون على العرب أو قتل الشعب البؤس والعناء ويملئون الأرض شرّاً وبغيّاً وطغياناً . وعلى هذا النحو كان المتنبي لا يزال ينزل على الحكام الأعاجم بسياطه ، مصوراً شقاء الرعية واستذلالها وفساد الحاكم . وكل ذلك ضمنه قصيدة المديح ، التي تصبح عنده مرآة لحياة الأمة السياسية والاجتماعية والحربية ، وليس ذلك فحسب فإنها تصبح أيضاً مرآة للروح العربية الخالدة على مر التاريخ ، إذ صور خصالها من العزة والكرامة والإباء والفتوة إلى أقصى حد في مثل قوله :

وإني لمن قوم كأن نفوسنا      بها أتف أن تسكن اللحم والعظمًا

فلا عبرتُ بي ساعةٌ لا تُعزِّيَني ولا صحبتني مهجةٌ تحمل الظلما

وهل أغلى من النفوس ؟ إن العرب ليقدمونها مبتهجين مغتربين فداء لكرامتهم وأنفتهم وعزتهم وكبرياتهم القومية ، ولا يكاد المتنبى العربى يتصور ساعة أو لحظة لا يقوم فيها بعمل يعزُّه عزَّةٌ قَعَساء . وإنه ليدعو دعاءً مخلصاً أن لا تمر عليه ساعة أو لحظة لا تعزُّه ، بل إنه ليدعو على نفسه بالموت إن قبل ظلماً أو رضى عَسْفاً . ويقول :

عِشْ عزيزاً أوُمتْ وأنت كريمٌ      بين طَعْنِ القَنَا وَحَقَّقِ البُنُودِ  
وَاطْلُبِ العِزَّ فى لَطَى وَذَرِ الذُّلَّ      لَـ ولو كان فى جِنانِ الخلودِ

وذلك دستور العربى ، لا يقبل الذل ، بل دونه الموت الزُّؤام فى ساحة الحرب والنزال ، لقد خُلِقَ لكى يعيش عزيزاً ، وإنه ليؤثر العزة ولو كلفته العيش فى الجحيم وبين نيرانها الموقدة . أما الذل فإنه يرفضه ، حتى لو كان فى فراديس الجنان لرفض الحياة فيها غير آبه ، بل سعيداً كل السعادة . وحقاً المتنبى عربى صميم ، وهو لذلك لا يزال يجسد لأمته مثلها العربية شعارات بائناً فيها دائماً روحها الخالدة ، روح الفتوة والقوة ، وهى روح كان يستشعرها فى أشد ما يكون من البأس والمضاء حتى ليصبح أحياناً وكأنه أسد ضار ، على نحو ما وصف نفسه فى قوله :

وفى الجسمِ نفسٌ لا تشيبُ بِشَيْبِهِ      ولو أن ما فى الوجه منه حِرَابُ  
لها ظُفْرٌ إن كلَّ ظُفْرٍ أعدَّهُ      ونابٌ إذا لم يَبْتَقِ فى الفمِ نابُ

فهى نفس فتيَّةٌ يحملها جسم عات ، حتى لكان ما فى وجهه من شعرات حرابٍ مصلثة على الأعداء ، وهى نفس أسدية تنشب أظفارها فى أعدائه ، حين لا يجد سيفاً ، وتكشُر عن أنيابها حين لا يجد رحماً ، نفس صلبة أشد ما تكون الصلابة ، هى النفس العربية التى طالما دوَّخت الأمم وفرضت عليها السيادة والسلطان . وفى الحق أن العربية لم تعرف شاعراً تمثَّل روحها كما تمثَّلها المتنبى ، وهو تمثِّلٌ ليس له سابقة فى الشعر القديم ، وفى أى شعر عنده تمثِّل تلك الروح ؟ فى شعر المديح الذى يحمل عليه كثير من المعاصرين ، لأنهم لم يدوسوا الشعر

العربي دراسة متتدة، ومن أروع الأشياء أن يقرأ الشباب المتنبي ليملاً نفوسهم قوة وصلابة ومضاء وأنفة وعزة .

ونترك المديح عند المتنبي وما طُوى فيه من هجاء سياسي وطوايع مختلفة للروح العربية إلى الرثاء ، ونختار منه في العراق لوناً سياسياً يتصل بطبقة شعبية كبيرة ، ونقصد رثاء الشيعة للحسين ، وكان له موسم في عاشوراء من كل عام ، وكان أول من دعا إلى ذلك معز الدولة البويهى حاكم بغداد إذ أمر الناس في سنة ٣٥٢ للهجرة أن يحتفلوا بيوم عاشوراء بغلق الأسواق ونصب القباب وتعليق المسوح السوداء عليها ، وخرج النساء مسودات الوجوه منشورات الشعر ، قد شققن الثياب ، ومضين يدُرْنَ في بغداد وينحن ويلطمن وجوههن على الحسين . وبالمثل احتفلت كربلاء باليوم على تلك الصورة الحزنة . وظلت تلك العادة طوال العصر ، وكانت تُقام معها مآتم كبيرة ينشد فيها الشعراء مرثى للحسين وأبيه على بن أبي طالب وأئمة الشيعة المقتولين . وكان يقوم على النواح قوم عُرفوا به ، وكانوا ربما ناحوا بمساجد بغداد والكوفة في أيام أخرى غير يوم عاشوراء ، ومن كبار الناحة ببغداد في النصف الثاني من القرن الرابع الهجرى أحمد المزوق النائح ، ويُرَوَى أنه ناح يوماً في أحد مساجد بغداد بقصيدة الشاعر الشيعى الناشئ الأصغر ، وفيها يقول :

بمثل مصابي فيكم ليس يُسْمَعُ	بنى أحمدٍ قلبي لكم يتقطعُ
ويسطو عليكم من لكم كان يخضعُ	عجبتُ لكم تفتنون قتلا بسيفكم
فأجسامكم في كل أرضٍ تُوزَعُ	كأن رسول الله أوصى بقتلكم
وليس لكم فيها قتيلٌ ومصرعُ	فما بقعةٌ في الأرض شرقاً ومغرباً

وتوزع : تفرق . وكان الناشئ الأصغر حاضراً فلطم لطمًا كثيراً على وجهه ، وتبعه أحمد المزوق النائح والحاضرون جميعاً ، وظلوا ينوحون بأبيات القصيدة حتى صلاة الظهر . وللناشئ قصيدة ثانية بائية كانوا ينوحون بها لعصره في بغداد وفي مشهد الحسين بكربلاء ، وفيها يدعو للنار من قتلى الحسين وأبيه على بن أبي طالب بمثل قوله :

رجائي بعيدٌ والمماتُ قريبٌ      ويخطئُ ظنِّي فيكمُ ويصيبُ  
 متى تأخذون الثأرَ ممن تآلبوا      عليكم وشبوا الحربَ وهى ضروبُ  
 فذلك قد أذمى ابنُ ملجمٍ شيبهُ      فخرٌ على المحرابِ وهو خضيبُ  
 وهذا توزعنَ الصوارمُ جسمهُ      فخرٌ بأرضِ الطَّفِّ وهو تريبُ

وأرض الطف : كربلاء . وتريب : معفر بالتراب . وهو يشير إلى مقتل على بن أبي طالب وامتداد يد ابن ملجم الآثمة إليه في الظلام بطعنة مُصمّية ، وهو يصلى الصبح جماعة في المحراب والناس مؤتمون به ، كما يشير إلى مقتل الحسين الفطيع دون شفقة أو رحمة . وكان الناس ينوحون في المشهد بكربلاء بالقصيدة جميعها . وتكاثرت منذ هذا الحين مرثي الحسين مع الزمن ، ومن أهمها مرثي الشريف الرضى ، وهى تقطر أسى وحزناً ولوعاً من مثل قصيدته التى أنشدتها بكربلاء على قبر جده الحسين ، وفيها يقول ملتاعاً :

ياقتيلاً قوّض الدهرُ بهِ      عمَدَ الدينِ وأعلامَ الهدى  
 مرهقاً يدعو ولا غوثَ لهُ      بأبٍ برُّ وجدُّ مُصطفى  
 وبأَمِّ رفعَ اللهُ لها      علماً ما بين نِسوانِ الورى  
 لو رسولُ اللهُ يحيا بَعْدَهُ      قعدَ اليومَ عليه لِلعزَا

ولا نشك في أن هذه القصيدة كان ينوح بها الناحة لعصر الشريف الرضى في مآتم الحسين ، وأن الناس كانوا يصيحون بأبياتها وينوحون بها معهم ، ودموعهم تسيل مدراراً وتتفجر أنهاراً . وديوان مهيار تلميذه ملىء بمثل هذا النواح الزاخر بالألم . ووراءهما جميعاً كثير من هذه المرثي السنوية الملتاعة على الحسين وآله ، مصورة انطباعات الحزن عليه ومداها في نفوس الشيعة .

ومن الرثاء السياسى الدينى بالعراق وما وراءها من إيران رثاء مدن الشام منذ أواخر القرن الخامس الهجرى حين كانت تسقط فى أيدى حملة الصليبي المغيرين من الغرب ، وستأتى عما قليل معارك نور الدين وصلاح الدين وخلفائهما معهم ، حتى أجلوهم إلى البحر وما وراءه مدحورين . وحين سقطت فى أيديهم القدس

سنة ٤٨٨ بعد استبسال رائع لأهلها وبعد أن قتلوا فيهم مقتلة عظيمة رثاها كثير من الشعراء العراقيين والإيرانيين وغيرهم ، وهو في حقيقته ليس رثاء بل هو استنفار للمسلمين كي يستردوا ديارهم من الأعداء الآثمين ، ويردوا إليهم كيدهم في نخورهم ، من مثل قول أبي المظفر الأبيوردى من ميمية طارت في الآفاق :

وكيف تنام العَيْنُ ملء جفونها  
على هَنَوَاتٍ أيقظت كلَّ نائمٍ  
وإخوانكم بالشام يُضحى مَقِيلُهُمْ  
ظهور المداكى أو بطون القشاعم  
وكاد لهنَّ المستجنُّ بِطَيْبَةِ  
ينادى بأعلى الصوتِ يا آل هاشمٍ  
أرى أمتي لا يُشرعون إلى العدا  
رماحهم والدين واهى الدعائم  
وليتهمُّ إذ لم يذودوا حميةً  
عن الدين ضنوا غيرَةً بالمحارم  
وإذ زهدوا في الأجر إذ حمى الوغى  
فهلأ أتوه رغبةً في الغنائم

والمداكى : الخيل القوية . والقشاعم : النسور المسنة . وطيبة : المدينة .  
والأبيوردى يستثير من حوله في إيران والعراق ، فأهل الشام يستبسلون في حرب  
حملة الصليب وحدهم ، وهم بين فارس يدق صدورهم بسيفه وقتيل مخرج بالدماء  
تنوشه الطير ، وقد سببت النساء وانتهكت حرمت الإسلام ، فيالهول ما حلَّ  
بديار المسلمين . وإن الرسول ليكاد يصرخ في أمته : أجيئوا داعي الله ، وهبوا  
هبة واحدة في وجوه أعداء الدين الخنيف ، حمية للدين وغيره على المحارم وطلباً  
لما أعد الله للمجاهدين من ثواب الآخرة العظيم . ويكيل لهم - كما قلنا آنفاً -  
نور الدين وصلاح الدين ضربات مميته ويسترد صلاح الدين بيت المقدس على  
نحو ما سئرى بعد قليل وينكل بهم تنكيلا شديداً . ويدور الزمن دورات ، وإذا  
التتار يأتون من أواسط آسيا بجحافلهم الجاهلة الوحشية فيكنسحون إيران ، ويغزون  
بغداد ويحرقونها ويحيلونها خراباً يباباً ، وبقى السيف يعمل فيها وفي أهلها أربعة  
وثلاثين يوماً ، ونظم الشعراء والعلماء قصائد كثيرة في مرآئها ومرآئ أهلها ، من  
ذلك قصيدة مشهورة للشيخ تقي الدين التنوخي ، يقول في تضاعيفها :

يا زائرین إلى الزَّوْرَاءِ لا تَفِدُوا  
فما بذاك الجَمَى والدارِ دياراً

تأجُ الخِلافة والرَّبْعُ الذي شُرُفتُ      به المعالمُ قد عَفَاهُ إِفْقارُ  
 إن القيامة في بغدادَ قد وقعتُ      وحدها حين للإقبالِ إِدبارُ  
 آلُ النبي وأهل العلم قد أُسِرُوا      فمن ترى بعدهم تحويه أمصارُ  
 لم يَبْقَ للدين والدنيا وقد ذهبوا      سوقٌ لمجدٍ وقد بانوا وقد باروا

والزوراء: بغداد . وباروا: هلكوا . ويقول شمس الدين الكوفي من قصيدة طويلة:

أين الذين عهدتهم ولعزمهم      ذُلًّا تخرُّ معاقدُ التيجانِ  
 ما زلتُ أبكيهم وألثم وحشةً      لجمالهم متهدِّمِ الأركانِ

فبغداد قد أحالها التار قفراً خراباً ، بل مقبرة لأهلها ، بعد أن ظلت طويلاً فردوساً تتعالى فيه أصوات الوعاظ والعلماء والشعراء ، ويؤمُّه الناس من كل فج عميق .

وطوال هذا العصر كان الغزل في العراق على كل لسان ، لأنه يحكى قصة الحب الإنساني الذي تشترك فيه جميع الشعوب والأمم ، وشاع في بعض جوانبه المحنون والغرائز النوعية ، وخاصة عند الشعارين البغداديين : ابن حجاج وابن سكرة ، وكثير من غزلهما يؤذى الشعور السليم ، غير أن الشعب كان يعدُّ ذلك عندهما ضرباً من الهزل . ولم يكن هو الغزل الشائع وحده ، فقد كان الغزل العفيف لا يقل عنه شيوعاً ، لما يحمل من وجد حقيقي يملك على النفوس حِسَّها وشعورها وعواطفها وأهواءها ، وأيضاً لأنه هو الذي كان يتغنى فيه المغنون والمغنيات ، فيشبعنّه في الألسنة ، وقد ظل للغناء ازدهاره طويلاً ، ويصور لنا ذلك أبو حيان ببغداد في القرن الرابع الهجري . فيقول في كتابه « الإمتاع والمؤانسة » : أحصينا ، ونحن جماعة في الكرخ ( حتى اللهو والملاهي ببغداد ) أربعمائة وستين من الجوارى المغنيات غير مائة وعشرين حرّة . . هذا سوى من كنا لا نظفر به لحرسه ورقبائه . وكل هؤلاء كن يغنين ببغداد لعصره ، وظل أمثالهن بعد عصره في بغداد وغير بغداد يعملن على إشاعة أغاني الحب . غير من كان يشركهن في الغناء من المغنين ،

ولا بد أنهم كانوا يعدون في بغداد لعصر أبي حيان بالمئات ، ومن طريف ما كان يدور بالسنة المغنين وترتفع به أصواتهم مما أنشده أبو حيان :

بالوَرْدِ فِي وَجْنَتَيْكَ مَنْ لَطَمَكَ      وَمَنْ سَمَكَ الْمُدَامَ لِمَ ظَلَمَكَ  
مُعْقِرَبَ الصُّدْغِ ! قَدْ ثَمِلْتَ فَمَا      يَمْنَعُ مِنْ لَثْمٍ عَاشِقِيكَ فَمَكَ  
بِاللَّهِ يَا أَقْحَوَانَ مَضْحَكِهِ      عَلَى قَضِيبِ الْعَقِيقِ مِنْ نَظْمِكَ

والتقطعة مليئة بالصور ، وباللفتات الذهنية التي تُحدث مفاجأة لدى السامع ، فيعجب بالشعر وصاحبه . ويسوق لنا أبو حيان فصلاً طويلاً يحدثنا فيه عن طرب أهل بغداد بالغناء لعصره ، وأنه لم يكن بينهم شخص إلا ويطرب بالغناء طرباً شديداً حتى المتصوفة من مثل ابن فهِم الصوفي الذي كان يطرب طرباً يفوق كل حدّ حين يسمع « نهاية » جارية ابن المغني تندفع في شدّ ودا :

أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ فِي بَغْدَادِ لِي قَمْرًا      بِالكَرْخِ مِنْ فَلَكَ الْأَزْرَارِ مَطْلَعُهُ  
وَدَعْتُهُ وَبِسُودَى لَوْ يُوَدِّعُنِي      صَفْوُ الْحَيَاةِ وَأَنَّى لَا أُوَدِّعُهُ

ويذكر أبو حيان أنه كان من شدة طربه يضرب بنفسه الأرض ويتمرغ في التراب ويهيج ويزيد ويعض بنانه ويعخمش بظفره ويركل برجله ويخرق المرقعة ( ثوبه المرقع ) قطعة قطعة ، ويلطم وجهه ألف لكمة . ويصور لنا أبو حيان تصويراً نفسياً قاضي الكرخ ببغداد المسمى بالجراحي ، والناس من حوله في مجلس الغناء ومدى تأثير كل منهم بما يسمع ، إذ يلتقي الغناء بأصداء نفسية تختلف باختلاف السامعين واختلاف أحاسيسهم ومشاعرهم وأحوالهم الوجدانية ، ويقول إنه كان مع وقاره وسمته وإطراقه الدائم لا يلبث في مجلس الغناء حين يستمع إلى « شعلة » المغنية وهي تصدح :

لَا بَدَّ لِلْمَشْتَاقِ مِنْ ذِكْرِ الْوَطَنِ      وَالْيَأْسِ وَالسَّلْوَقِ مِنْ بَعْدِ الْحَزَنِ

أن يغمز بالحجاب ، ويموج خفة وطرباً : ويقول أبو حيان : كانت قيامته تقوم إذا سمعها ترجع في لحنها :

لو أن ما تبتليني الحادثاتُ به يُلقَى على الماءِ لم يُشربَ من الكدرِ

يقول أبو حيان ، فهناك ترى شيبة قد ابتلت بالدموع ، مع أسف قد أوهن الروح وقطع الصخر وأذاب الحديد ، وهناك ترى أحداق الحاضرين باهتة ، ودموعهم متحدرة ، وشهيقهم قد علا رحمة له . وهذه صورة - كما يقول - إذا استوت على أهل المجلس وجدت لها عدوى لا تُملك ، وغاية لا تُدرَك ، لأنه قلما يخلو إنسان من صبوة ، أو صباية ، أو حسرة على فائت ، أو فكر في متمنى ، أو خوف من قطيعة ، أو رجاء لمنتظر ، أو حزن على حال . وهذه أحوال معروفة ، والناس منها على طريقة معهودة . وبلغ حينئذ من اتساع تأثر الناس بالغناء وطلبهم له أنهم لم يكونوا يختلفون إليه في الحانات ودور اللهو في الكرخ وغير الكرخ ، بل نقلوه أحيانا إلى رحاب المساجد ، إذ نرى أبا حيان ينوّه بطرب المعلم غلام الحُصْرِيّ شيخ الصوفية حين كان يستمع إلى ابن بهلول يغنى في رحبة المسجد بعد صلاة الجمعة :

وقال لى العَدُولُ : تسلَّ عنها  
فقلتُ له أتدرى ما تقولُ  
هى النفسُ التى لا بُدَّ منها  
فكيف أزول عنها أو أحولُ

يقول أبو حيان : ولم يكن ابن سمعون أكبر وعاظ العصر ببغداد أقل طرباً من غلام الحُصْرِيّ حين يأخذ ابن بهلول القضيبي ويوقّع عليه ، ويزلزل الدنيا بصوته الناعم وغنّته الرخيمة .

وأكبر شعراء الغزل العفيف في العصر ببغداد الشريف الرضى وتلميذه مهبار . وكان الصوفية يُشغِقون بغزلهما شغفاً شديداً ، وبالمثل كان يشغف به كثير من الناس ، لما بثاً فيه من وجد وحنين قوى . واشتهر الأستاذ وتلميذه بطائفة من الغزليات تسمى الحجازيات والنجديات ، لما أشاعا فيها من حنين ظامئ لأما كن حجازية ونجدية ، كانا يلتقيان فيها بمحوباتهما ، وليست هناك محوبات حقيقية ، إنما هى القدرة على تصوير دقائق الحنين ولوعاته من مثل قول الشريف الرضى :

خُدَيْ نَفْسِي يَارِيحُ مِنْ جَانِبِ الْحِمَى      ولاقى به ليلاً نَسِيمَ رَبِّي نَجْدِ  
فِيَّانَ بِذَلِكَ الْجَوِّ حَيًّا عَهْدَتَهُ      وبالرغم مني أن يطولَ به عهدِي  
ولولا تداوى القلب من ألم الجوى      بِذِكْرِ تَلَاقِينَا قَضَيْتُ مِنَ الْوَجْدِ  
وما شربَ العُشَاقُ إِلَّا بِقِيَّتِي      ولا وردوا في الحبِّ إِلَّا عَلَى وَرْدِي

فهو يحنُّ إلى صاحبه كأقوى ما يكون الحنين بين المحبين ، ولا يزال يذكر لقاءها ، وكأنه بلسم يداوى جراحه . ويقول إنه يهيم بها هيأماً لم يعرفه عاشق من قبله ، فالعشاق جميعاً إنما يشربون بقية الكأس الذي شربه ، وما يردون في الحب إلا على ورده وما فيه من رحيق مصفى . أليس طبيعياً أن يغرم الصوفية بمثل هذا الغزل ويتناشدونه في تضاعيف ذكركم ووجدكم وصبايتهم بربهم ؟ وهذا ما حدث فعلاً ، فقد كانوا ينشدون له هذه الأبيات وما يشاكلها من مثل قوله :

سَهْمٌ أَصَابَ وَرَامِيهِ بِذِي سَلَمٍ      مَنْ بِالْعِرَاقِ لَقَدْ أَبْعَدَتْ مَرَاكِ  
يَا ظِيْبَةَ الْبَانَ تَرَعَى فِي حَمَائِلِهِ      لِيَهْنِكَ الْيَوْمَ أَنَّ الْقَلْبَ مَرْعَاكِ  
الْمَاءُ عِنْدَكَ مَبْدُولٌ لَشَارِبِهِ      وَلَيْسَ يُرْوِيكَ إِلَّا مَدْمَعِي الْبَاكِ  
أَنْتَ النِّعِيمُ لِقَلْبِي وَالْحَجِيمُ لَهُ      فَمَا أَمْرُكَ فِي قَلْبِي وَأَحْلَاكِ

إنها ظيبة البان أو ظيبة البيد ، تشعل قلبه حباً ولا ترق له ، وما أبعد الشقة ! أن يصيبه وهو بالعراق سهم حبها وهي بالحجاز فلا يستطيع عنها سلواً ولا منها خلاصاً ، بل يتعمق حبها قلبه . ومن عجب أنها تعطف على كل من حولها وتروى ظمأهم ، أما هو فكأنما تطلب منه أن يرويها بدموعه الغزار . فما أبأسه ! إنه يجد في حبها السعادة والشقاء ، ويتقلب بين النعيم والحجيم ، فتارة حلوة صافية تذاق ، وتارة عذاب مرير لا يطاق . وكان مهيار يحاكيه في هذا الغزل الحجازي وما يبث فيه من وجد ما بعده وجد ، ولذلك كثر إنشاد الصوفية لغزلياته في حلقات ذكركم ، من مثل قوله :

مَنْ نَاظِرٌ لِي بَيْنَ سَلْعٍ وَقُبَا      كَيْفَ أَضَاءَ الْبَرْقُ أَمْ كَيْفَ خَبَا

بَرَقَ لَهُ قَدْ صَارَ قَلْبِي خَافِقًا      وَاسْتَبْرَدَتْهُ أَضْلَعِي مُلْتَهَبًا  
 سَلَّ مَنْ يَدُلُّ النَّاشِدِينَ بِالْغَضَا      عَلَى الطَّرِيدِ وَيَرُدُّ السَّلْبَا  
 أَرَا جَعُّ لِي - وَالْمُنَى هَلْهَلَةٌ -      فَطَالَعُ نَجْمُ زَمَانٍ غَرْبًا  
 وَطَوْفَةٌ بَيْنَ الْقَبَابِ بِمَنَى      لَا خَائِفَا عَيْنَا وَلَا مُرْتَقِبَا

والقطعة محمّلة بحنين مؤثر إلى ديار المحبوبة في المدينة المنورة عند جبل «سَلْع» و«قُبَاء» وفي نجد عند أشجار الغضا . ولا ينسى طوافه بقبابها بمكة في منى ، وكأنها محبوبة قدسية ، وإن ذكرها لتهب عليه بنسيم عطر ، لم تستروح نفسه أزكى منه ولا أعقب . ويكثر مثل هذا الغزل المكتظ بالحنين عند مهيار وما يوج به من ذكريات ، ومن طريف ما دار له على الألسنة في عصره وبعد عصره قوله :

اذكرونا ذكّرنا عهدكم      رَبِّ ذِكْرِي قَرِيبَتْ مَنْ نَزَحَا  
 وارحموا صبأ إذا غنى بكم      شَرِبَ الدَّمْعَ وَعَافَ القَدْحَا  
 قد عرفتُ الهمَّ من بعدكم      فَكأنِّي مَا عَسَرْتُ الفَرْحَا

وكلما تقدمنا في العصر استقبلنا ما لا يحصى من مثل هذا الغزل العفيف الرائع الذي كان يتردد على الأفواه، لما يترقق فيه من حنين ظامئ أبدأ. ومن أهم من اشتهروا به في العراق الحاجرِي والتَّلَعْقَرِي شاعرا الموصل في القرن السابع الهجري ، وهما بصوران استثار الهوى بقلبيهما وعذابهما فيه ووجدتهما وجداً لا يدانيه وجد ، وبذلك كان غزلهما قريباً من كل نفس .

وكان من أقرب الشعر إلى أفئدة الناس شعر الزهد والتصوف لصلته بروح الإسلام ، فكان الشعراء يكثرّون من الحديث إلى الشعب عن العمل الصالح والتقوى وعبادة الله والنسك والأمل في جنته ونعيمه والخوف من ناره وجحيمه والقناعة ورفض متاع الحياة الزائل ولافتناع بالمعيشة المتشقة . وكاد يكون في كل مسجد واعظ ، إن لم يكن واعظ يذكّرّون الناس بالموت وما بعد الموت من الحساب والثواب والعقاب . ومن كبار الزهاد الوعاظ في العصر ابن الجوزي المتوفى في أواخر القرن السادس الهجري . وقد ظل يعظ الناس ببغداد أكثر من أربعين عاماً ، وكان

يحضر مجالس وعظه آلاف من الناس ، بينهم الأمراء والوزراء . وكان شديد التأثير في سامعيه ، فسرعان ما ترسل وابلها العيون ، وتبدى القلوب عن سر شوقها المكنون ، كما يقول ابن جبير الأندلسي في رحلته المشهورة وقد شهد مجلس وعظه ، يقول : ويتطارح الناس عليه بذنوبهم معترفين ، وبالتوبة معلنين ، وكان ينشد في أثناء مجلسه أشعاراً من النسيب ، مبرحة التشويق ، بعيدة الرقيق ، تشعل القلوب وجداً ، ويعود نسيبها زهداً ، من مثل :

أين فؤادى أذابه الوجدُ وأين قلبي فما صححاً بعدُ  
ياسعدُ زدني جوى بذكرهم بالله قل لي - فديت - ياسعدُ

وكأنما كانت في ابن الجوزي نزعة صوفية جعلته يستشهد في مجالسه كثيراً بأشعار الوجد والغرام . ومن كبار الوعاظ في العصر المرثضى الشهرزورى وكان أكثر تعمقاً في التصوف من ابن الجوزي ، وكان مليح الوعظ مع الرشاقة ، وكان شاعراً مبدعاً ، وطبيعي أن يكون أكثر شعره في التصوف والمحبة الإلهية ، وكثيراً ما كان ينشد منه في مواعظه . وله قصيدة صوفية سارت بها الركبان في عصره وبعد عصره ، لما تذيع من مواجد الصوفية ولحلاوتها الموسيقية ، وفيها يقول :

لمعت نارهم وقد عسعس اللئى لُ وملّ الحادى وحرار الدليل  
ثم قابلتها وقلت لصحبي هذه النار نار لئلى فميلوا  
وهى تعلقو ونحن ندنو إلى أن حجرت دونها طوللُ محول  
فدنونا من الطلؤل فحالت زفرات من دونها وغليل  
قلت: من بالديار؟ قالوا جريح وأسير مكبل وقتيل  
فحططنا إلى منازل قوم صرعتهم قبل المذاق الشمول

فهو ما زال يأخذ نفسه بسرى طويل حتى ملّ الحادى ، لأن سراه لا ينتهى ، وفجأة أحس كأنما لقي صاحبه ، فتلک نيران الحى واقدة ، ويحاول الوصول إليها ، فترتفع عنه ولا زالت ترتفع ، حتى حجبتها الطلؤل الماحلة . ويدنو من الطلؤل ، فيحس كأنما حجبتة في هذه المرة زفراته الحارة ودموعه المترققة في عينيه . ويجد من

حواله كثيرين يريدون الوصول ، وهم بين جريح وأسير مقيد وقتيل ، وقد صرعتهم جميعاً خمر المحبة الإلهية قبل أن يذوقوها ، ويتزل معهم وقد غمرت تلك المحبة قلبه وعقله . ويلقانا بعد الشهرزوري السُّهُرُورْدِيّ المقتول الذي أمر صلاح الدين بقتله ، لأنه غلا في تصوفه ، وأقنى العلماء من رجال الدين بزندقته ، وكان قد كثر أتباعه ، فتفرقوا في البلاد . وله قصيدة حائية سارت في أوساط المتصوفة كل مسار ، وفيها يقول :

أبداً تحنُّ إليكم الأرواحُ	ووصالكم رِيحانها والراحُ
وقلوبُ أهلٍ وداكم تشناقكم	وإلى جلال جمالكم ترتاحُ
وارحمةٌ للعاشقين تكلفوا	سَترَ المحبَّةِ والهوى فضَّاحُ
يا صاحِ ليس على المحبِّ ملامةٌ	إن لاح في أفق الوصالِ صباحُ
لا ذنبٌ للعشاق إن غلب الهوى	كثانهمُ فنمَّا الغرامُ وباحوا
لا يَطرِبون بغير ذكر حبيبهم	أبداً فكلُّ زمانهم أفرأحُ
فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم	إن التشبُّه بالكرامِ فلاحُ

وهو يصور في الأبيات عشق المتصوفة للذات الإلهية ومدى هيامهم ، فوصالها ريحانهم ، بل هو سكرهم وصحوهم ، بل إن صحوهم سكر خالص لما ينتشون به من محبة ربهم ، وإنهم ليحاولون أن يسترُوا حبيهم ، ولكن الحب فضَّاح يتم عن صاحبه ، مهما ستره وأخفاه ، بما ينسكب من دموعه دائماً على خدوده . وقد يظن الرائي أن الصوفية سيكون حزنًا ، وهم إنما يكون فرحًا باللقاء والوصال ، فحياتهم أفرأح . وفي القصيدة أبيات أخرى لم نشدها تصور غلوه في تصوفه على نحو ما كان يغلو الحلاج إذ يؤمن بالقاء والاتحاد بالذات العلية . والقصيدة تذوب عذوبة ورشاقة ، وكان تلاميذه وأتباعه يحفظونها ، وينشدونها الناس . فتجري بعض أبياتها على ألسنتهم . وشعر الصوفية من هذه الناحية كان قريباً جداً من نفوس الشعب ، وخاصة حين كانوا يصوغونه هذه الصياغة السلسة السهلة . وكان قريباً من عصره سُهُرُورْدِيّ ثان هو شهاب الدين عمر بن محمد ، وكان شيخ الشيوخ ببغداد ، وعقد بها مجلس الوعظ سنين ، وكانت حلقاته دائماً زاخرة بمئات

الأشخاص ، وكان يتخلَّل وعظه بأشعار صوفية كثيرة ، تارة تخوض في الحب الإلهي من مثل قوله :

إن تأملتكم فكلى عيونُ      أو تذكركم فكلى قلوبُ

وقوله :

تصرمتُ وحشةً الليالى      وأقبلتُ دولةً الوصالِ

وعلى طريقة الصوفية كان يرمز لنشوة الحب الإلهي أحياناً بشرب الصهباء وما تشيع في النفوس من نشوة السكر ، ويُروى أنه أنشد يوماً وهو يلقي وعظه على الكرسي في المسجد الجامع ببغداد :

لا تسقيني وخذى فما عودتني      أنى أشحُّ بها على جلابي  
أنت الكريمُ ولا يليقُ تكراً      أن يعبرَ الندماءَ دورُ الكاسِ

فتواجد الناس لذلك - كما يقول ابن خلكان - وقطعت شعور كثيرة ، وتاب جمع كبير . وهذه كلها أمثلة من أشعار صوفية كانت تطبع في لغتها بطوابع شعبية ، فهي قريبة جداً في ألفاظها من لغة الشعب اليومية ، إذ كانت توجه إليه ، وكان يتعلَّق بها ويروىها ، وسرعان ما كانت تنتشر في آفاق العالم العربي جميعه . وكثير من هذه الأشعار الصوفية كان ينشده المتصوفة في حلقات الذكر التي أخذت تعم في بلدان العالم الإسلامى منذ أوائل هذا العصر . وكانت هذه الحلقات تنعقد حول صمّين من الذاكرين لله المسبحين يتأيلون وقوفاً يميناً وشمالاً ، وسمّى معاصروهم ذلك رقص الصوفية . وكان يقوم بين الصفيين منشد ، ينشد بعض الأشعار مما نظمه الصوفية ، ومما نظمه شعراء الوجد والهيام ، مما سموه بالحجازيات والنجديات ، على نحو ما أشرنا إلى ذلك في حديثنا عن غزليات الشريف الرضى ومهيار . ويخيل إلى الإنسان كأنما نثر الصوفية بين أيديهم كينانة الغزل على مر العصور ، وخاصة ما انبث فيه من الحنين بقوة إلى المواضيع والأماكن الحجازية والنجدية ، وقد اختاروا أحداً ما قرءوه أو حفظوه سهاماً ، وأنفذه إلى القلوب والأفئدة ، فأنشده على الذكر وحلقاته . وتروى في كتب الأدب والتاريخ أقاصيص كثيرة عن تواجد السامعين وشدة هيامهم حين كانوا يستمعون إلى هذه

الغزليات في حفلاتهم الكبرى ، من ذلك ما يُروى من أن مغنياً تغنى في الدعوة التي كان يقيمها الخليفة المستنجد سنوياً ببغداد :

يقول رجالُ الحىّ تطمعُ أن ترى      محاسنَ ليلى مُتَ بداءِ المطامعِ  
وكيف ترى كيلى بعينِ ترى بها      سواها وما طهرتَها بالمدامعِ  
وتلتذُّ منها بالحديث وقد جرى      حديثُ سواها في خُروقِ المسامعِ

وحضر مع الصوفية صوفى من أهل أصبهان في إيران ، فوقف ، وظل قائماً قائلاً للمغنى : « سيدى قل » أو كما يقول الناس الآن للمغنى : « أَعِدْ » حين يعجبون بصوته، وما زال الصوفى يكرر ذلك ، والمغنى يعيد الأبيات ، حتى وقع الصوفى ميتاً ، فانتقل ذلك الحفل مأمّماً ، وبكى الخليفة والصوفية ، وظلوا وظل الناس يتراقصون حول المغنى ، وهو يعيد الأبيات ، إلى الصباح ، وحملوا الصوفى إلى المقابر فدفنوه في مشهد عظيم . وكان مثل هذا الحفل الصوفى يحدث كثيراً ، وكان الناس يتناقلون قصصه وما أنشد فيها من غزل صوفى أو عُذرىّ عفيف . ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن التصوف في هذا العصر كان أداة قوية لنشر أشعار الحب ، سواء الصوفى منها المتصل مباشرة بالحب الإلهى ، وغير الصوفى المتصل بالحب الإنسانى ومعانيه الوجدانية التي يتسع فيها الخيال ويسبح الشعور في طوفان من الحنين والحب المضنى الذى لا يدانيه حب .

وكانت طبقة العامة في هذا العصر - كما في العصرين السابقين - تعاني من الفقر والبؤس والجوع والعري ، وكانت تكدح صباح مساء لتستمتع الطبقة الأرستقراطية بالحياة ، ولتنعم بكل ما يمكن من وسائل الترف وأدواته ، وكان ينشأ في هذه الطبقة البائسة الفقيرة كثير من الشعراء أو قل جمهورهم ، وكان منهم من يرتفع عنها بما يصير إليه من مكافآت الطبقة الأرستقراطية تقديراً لفنّه ، ولكن الكثرة ظلت ترسُفُ في قيود البؤس والشقاء ، فكان طبيعياً أن ينشأ فيها شعراء جوالون ، يرحلون في البلدان العربية شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً طلباً لكسب ما يسدُّون به رمقهم ، بما يظهرون من براعات أدبية . وهم يشبهون - من بعض الوجوه - « جماعات الأدباتية » التي كانت تظهر عندنا بمصر إلى زمن قريب في الموالد والأعياد أثناء الخليل الماضى والأجيال قبله ، وكأنما هي البقية الأخيرة لأولئك

الشعراء الجوالين القدماء الذين كانوا يُعرفون باسم المُكْدِين من الكُذْبِيَّة ، وهي الشحاذة الأدبية . وعُرفوا باسم الساسانيين ، وكأنما كان لهم نسب فارسي عريق ، أو قل كأنما كان لهم عرق ومكان في الحياة الفارسية الساسانية قبل الإسلام . ومن أكبرهم وأشهرهم في أوائل هذا العصر الأحنف العُكْبَرِيّ ، وهو من « عكْبَرِيّ » مدينة بالعراق ، وله بصور تعاسة أمثاله من المكدين الرحّالين :

عشتُ في ذِلَّةٍ وقِلَّةٍ مالٍ      واغترابٍ في معشرٍ أنذالٍ  
بالأمانى أقول لا بالمعاني      فغداً حلاوة الآمالِ

فهو راحل دائماً ومغترَب دائماً ، يطوف البلدان من الهند إلى ديار الزنج باحثاً عن بعض الدراهم ، ولا دراهم ولا مال ، فهو يعيش بالأمانى الحلوة وحدها ، وليس في يده منها شيء سوى البؤس والضنك والضيق والمسغبة ، حتى البيت لا يملكه ، بل حتى الوطن لا يملكه ، يقول :

العنكبوتُ بنتٌ بيتاً على وهنٍ      تأوى إليه ومالى مثله وطنٌ  
والخنفساء لها من جنسها سكن      وليس لى مثلها إلفٌ ولا سكنٌ

فلا دار له ولا مأوى ، ولا وطن ولا سكن ، ولا بيت حقير قدر كبيت الخنفساء ، ولا بيت واه متداع كبيت العنكبوت ، ولا إلف يألفه ولا صديق يركن إليه . إنه غريب ، غربة لا ضفاف لها ، ولا مَنْ يرحمه ، ولا من يفتح له بابه ، ولا من يفتح له كيسه ، فالدنيا مغلقة أمامه ، ولا مغيب ولا معين . وكان لا يقل عنه كُذْبِيَّة وشحاذة أدبية واغتراباً في الآفاق أبو دُلْف الخزرجي ، وكان بديع الزمان الهمداني يعجب بأدبه الشعبي الذي يتسوّل به وبجماعته من الساسانيين المكدين ، فسمّى مقامة من مقاماته باسم المقامة الساسانية ، وأودع في المقامة الأولى من مقاماته قول أبي دلف على لسان أبي الفتح بطل مقاماته مصوراً شحاذته الأدبية واحتيااله على الناس في البلدان العربية المختلفة :

ويحك هذا الزمانُ زورٌ      فلا يغرّنك الغرورُ  
زوقٌ ومخرقٌ وكلُّ وأطبِقُ      واسرق وطلبِقُ لمن يزورُ

لا تلتزم حالة ولكن دُر بالليالي كما تدور

فالزمان كله زور وخداع واحتيال على الرزق ، ولا بأس أن يكون هذا الاحتيال بالخرقة والسرقه وبكل صورة من صور الخداع والمكر والدهاء . ولأبي دلف قصيدة تبلغ نحو مائة وخمسين بيتاً ذكر فيها أصناف المكدين وأفعالهم وحيلهم وتجوالهم في البلدان . وهو يستهلها بغزل فكه يخرج منه إلى الفخر بأنه من الساسانيين البائسين الذين يمعنون في الترحال وراء الدرهم والدينار ، برّاً وبحراً وشرقاً إلى الصين وغرباً إلى طنجة ، وشالاً إلى بلاد الكفر في أوربا وجنوباً إلى بلاد النخيل والتمر في الجزيرة العربية . فدائماً تطواف ، ودائماً ترحال من قطر إلى قطر ، ومن بلد إلى بلد بحثاً عن لقمة العيش التي تتقطع لها قلوبهم حسرات ، يقول :

ألا إني من القوم الـ	بها ليل بني الغرّ
بني ساسان والحامى الـ	حيمى في سالف العَصْرِ
فطيننا نأخذ الأوقا	ت في العُسرِ وفي اليُسْر
وظلّ البين يرمينا	نوى بطننا إلى ظهر
فنحن الناس كلُّ النَّا	س في البرِّ وفي البحْرِ
أخذنا جزية الخلقِ	من الصّين إلى مصرِ
إلى طنجة بلّ في كـ	ل أرض خيلنا تسرى
لنا الدنيا بما فيها	من الإسلام والكُفْرِ
فنصطافُ على الثلجِ	ونشتو بلد التّمْرِ

ويعمى أبو دلف في قصيدته مصوراً حيل الساسانيين ، فهم يكتبون للنساء والرجال التعاويذ والأحراز ، وهم يقيمون منهم قاصاً يقص على الناس ، ويأمر أحد رفاقه بإعطائه بعض الدراهم ، حتى إذا انتهى المجلس تقاسم معه ما جمعه . وهم يشدون العصابات على جباههم يوهمون الناس أنهم مرضى ، كى يحسنوا إليهم . ومنهم من يدهن جسمه بالزيت حتى يسود جلده ويوهم الناس أن الجن لطمته أو جلدته . وتتعدد صور استدراهم لعطف الناس حتى يرموا إليهم بالدراهم ، من

ذلك أن منهم من يزعم الحرس وأن الروم قطعت لسانه في الحرب . ومنهم من يزعم أنه في حاجة إلى الدروع والسلاح للغزو . ومنهم من يتزيمى بزى النسائك للسؤال بنسكه . ومنهم من يري الناس كأن يده مقطوعة . ومنهم من يزعم أنه كان من أهل الكتاب وأسلم . ومنهم من يدور بين المغرب والعشاء في الطرقات قائلاً : رحم الله من عشى الغريب الجائع ، آخذاً من كل دار كسرة خبز . ومنهم من يوهم الناس أنه يعرف في النجوم أو ما يسمى بالطلاع . ومنهم من معه قطنة مغموسة في الزيت ، يمررها على عينيه لتدمع ويشكو حاله . ومنهم من يعبرون الرثوى والأحلام ، ومنهم من يتعاض ويؤجر طفلاً ليأخذ بيده . ومنهم الحواة . ومنهم من يشحذون على القردة . ومنهم من يرتدون رعدة شديدة تهتز لها مفاصلهم وتصلك أسنانهم . ومنهم من يشد لامرأة يدها أو عينها ويشحذ عليها . ومنهم من يلبسون المرقعات يوهمون أنهم من الصوفية . وعلى هذا النمط يعطينا أبو دلف صورة دقيقة لحياة أصحاب التسول والشحاذة لعصره ، ويختم قصيدته بقوله :

ألا إني حَلَبْتُ الدَّه	ر من شَطَرٍ إلى شَطَرٍ
فإن أظفرُ بآمالِي	شَفِينَا غَلَّةَ الصَّوْدِرِ
وَألممتُ بأوطاني	قوى النَّهْيِ والأَمْرِ
وإما تكن الأخرى	فلا أبتُ مع السَّفَرِ
ولا عُدْتُ منى عُدَّتْ	بلا عِزٍّ ولا وَفَرٍ

وواضح أن هذه الطائفة من الشعراء كانت طائفة شعبية خالصة ، شعبية في حياتها المتواضعة ، وشعبية في لغة أشعارها ، فهي أشبه بلغة الحياة اليومية . وقد أكثروا في أشعارهم من ألفاظ العامة والطلبات الدنيا . وما يؤكد هذا الجانب من الصلة الوثيقة بين الشعر والشعب أننا نجد من بين شعرائه طائفة من الأميين ، مثل الخباز البلدي الموصلى إذ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ولا تخلو مقطوعة له - كما يقول صاحب البيئمة - من معنى حسن أو مثل سائر ، ونراه يقول لبعض من تعرضوا له بالهجاء :

بالغَتَ في شَتْمِي وفي ذَمِّي	وما خَشِيتَ الشَّاعِرَ الأُمِّي
جَرَّيْتِ في نَفْسِكَ سَمًا فما	أحمدتِ تَجْرِيْبِكَ للَسَمِّ

ويدل على تغلغل الشعر حينئذ في جميع الطبقات أننا نجد كثيرين من أصحاب الحرف في الشعب يسهمون فيه مثل الزاهي من شعراء القرن الرابع الهجري ، وكان قطعاً وكانت دكانه بالكردخ ، وكان وصافاً محسناً كثير الملمح حسن الشعر . ومثله معاصره السري الرفاء ، وكان يرثي الثياب ويطرز عليها في دكان له بالموصل ، وكان شاعراً مطبوعاً عذب الألفاظ كثير الافتنان ومن طرائف شعره في الغزل قوله :

بنفسى من أجود له بنفسى      ويَبْخُلُ بِالتَّحِيَّةِ وَالسَّلَامِ  
وَحَتْفِي كَامِنٌ فِي مُقْلَتَيْهِ      كَمَوْنِ المَوْتِ فِي حَدِّ الحُسَامِ

وعلى هذا النحو لم يكن الشعر بالعراق في هذا العصر خاصاً بطبقة معينة من الطبقات ، بل كان عاماً للشعب بجميع أفراده من أصحاب حرف وغير أصحاب حرف ، ومن أميين وغير أميين ، لسبب مهم أكثرنا من الإشارة إليه ، وهو أن الثقافة بالشعر لم يكن دونها أسوار تحول بين أي فرد من أفراد الشعب وبين إحسانه للشعر ، حتى لو كان أمياً لا يعرف القراءة والكتابة .

وأخذ الشعر في مصر لهذا العصر ينهض نهضة قوية ، إذ أصبحت لها زعامة البلاد العربية منذ أقام الفاطميون فيها دولتهم ، وتبعهم الأيوبيون والمماليك ، وكان لؤاؤها حينئذ يُطِيلُ الشام أختها ، وكان شعراء البلديتين يتبادلان الإقامة فيهما . وقد يقيم الشاعر من إحدى البلديتين في البلدة الثانية شطراً كبيراً من حياته ، إذ كانتا بلدة واحدة يتحد الحكم فيها . ونستثنى من هذه الوحدة السياسية فترة إمارة الحمدانيين وبظلمهم سيف الدولة بجلب لأوائل هذا العصر ، ومنها أدار هجومه الباسل على الروم البيزنطيين ، على نحو ما مر بنا آنفاً ، وقد رأينا كيف تغنى المتنبي ببسالته وخلدها على الزمن وقد تغنّاها معه شعراء الشام والعراق وابن عم سيف الدولة أبو فراس الحمداني ، وكان فارساً مقداماً ، وطالما حطم الروم حطماً . وحدث أن التقى بهم فجأة ذات مرة ، فزالهم نزال الأبطال ، حتى أثنخوه بالجراح ، وأسروه ، وأرسلوا به إلى بيزنطة ، وظل في أسرهم أربع سنوات طوالاً ، إلى أن افتداه سيف الدولة مع طائفة من أسرى المسلمين . وله في أسره قصائد كثيرة سماها معاصروه بالروميات ، لأنه نظمها في بلاد الروم ، وهي تمتلئ حماساً وفتوة وقوة ، من مثل قوله :

وإني لجرارٌ لكلِّ كسيبةٍ  
 أسرتُ وما صخبِي بعزلٍ لدى الوغى  
 ولكن إذ أحمَّ القضاء على امرئٍ  
 يمتنون أن خلّوا ثيابي وإنما  
 وقائمٌ سبغى فيهمُ اندقَّ نصلُهُ  
 سيدكرفى قومي إذا جدَّ جدُّهم  
 ونحن أناسٌ لا تؤسِّطَ بيننا  
 تهنُّ علينا في المعالي نفوسنا  
 معوذةٌ أن لا يُخلَّ بها النَّصرُ  
 ولا فرسى مُهرٌ ولا رَبُّه عَمْرُ  
 فليس له برٌّ يقيه ولا بحرٌ  
 على ثيابٍ من دمائهم حُمْرُ  
 وأعقابُ رُمجى فيهم حُطْمُ الصَّدْرُ  
 وفي الليلة الظلماء يُفتقدُ البدرُ  
 لنا الصَّدْرُ دون العالمين أو القبرُ  
 ومن يخطب الحسنة لم يُغلها المهرُ

فهو بطل الحروب يقود جحافلها المظفرة ، أما أسره فإنه قدر مقدور نزل به ولا عاصم منه ، وقد أحسنى له الروم حين أسروه - رءوسهم إجلالا لفروسيته وما يعلمون من بأسه ، فتركوا له ملابسه الحربية يرتديها ، وهى ملابس ملطخة ، بل مضمخة ، بدمائهم ، فطالما اندقت سيوفه فى أجسادهم وصدورهم ورءوسهم . ويذكر قومه وبساتيمهم ، ويقول إنهم لن ينسوا صلواته وجولاته فى ميادين حرب الروم ، وسيشعرون فى عمق بافتقاده - فى منازلهم - كما يشعر الناس بافتقاد البدر فى الليالى المدلّحة . ويفخر بشجاعته وشجاعة قومه ومطامحهم الضخمة ، حتى كأنما تعاهدوا أن يكون لهم الصدر دون الناس جميعا ، وإلا فالقبر والموت الكريم ، وما أعظم تضحياتهم فى سبيل المعالى والأجداد الحربية ! إنهم يضحون بمهجم وأرواحهم ، وكأنها صداقتها النفيس . واشتهرت هذه القصائد الرومية منذ عصر أبي فراس ، ودارت على كل لسان لا فى حلب وحدها ، بل فى كل البلاد العربية ، لما تخفق به وتنبض من هذه الفتوة النفسية ، وكأن أبا فراس يعبر عن روح كل عربى إزاء أعدائه وأعداء أمته ، حتى فى الأسر ، والأغلال والقيود تأخذ بيديه وساقيه ، فإنه لا يذل ولا يهون ولا تنكسر نفسه ، بل تظل لها صلابتها الصلدة العاتية . وتلك هى روح العرب الخالدة على الزمن ، التى أجبرت أعداءهم فى كل عصر على احترامهم على نحو ما احترام الروم أبا فراس ، حتى بعد أسره ، فتركوا له زيَّه الحربى ، يتزيى به .

ويدور الزمن دورات حتى أواخر القرن الخامس الهجرى كما مر بنا وإذا

البابا إيربان الثاني يصيح في الغرب لاستخلاص الأراضي المقدسة في فلسطين من أيدي المسلمين ، ويمنح صكوك الغفران لكل من يحمل الصليب لهذه الغاية الآتية ، ويلبّيه مائة ألف من أرجاء أوروبا ، يتقدمهم بعض الأمراء الألمان والفرنسيين والإيطاليين . وكانت ديار الشام حينئذ موزعة بين السلاجقة والفاطميين ، وكانوا قد بلغوا من الضعف مبلغاً شديداً ، فلم يستطيعوا الصمود أمام هذا الجيش الضخم من حملة الصليب ، وسرعان ما استولى على أنطاكية ، والرُّها على الفرات ، وطرابلس ، والقدس ، مكوناً بكل منها إمارة مستقلة على أشلاء من قاوموه مقاومة عنيفة من أبناء الشعب . وعم الناس في المنطقة حينئذ بأس ممض ، إلى أن ظهر ثلاثة من أبناء الشعب وقواده العظام ، هم عماد الدين زنكي وابنه نور الدين وصلاح الدين الأيوبي ، الذين أخذوا يدقون أعناق الصليبيين دقاً ويسحقونهم سحقاً . وقد رأى عماد الدين أنه لا بد أولاً من توحيد الديار التي نزلوا بها : ديار الموصل والشام ، فجمعها تحت لوائه ، ثم مالبت أن أخذ يغزو حملة الصليب ويستولى على حصونهم ، حتى إذا كانت سنة ٥٣٩ للهجرة استولى على مدينة الرُّها ، فكان ذلك أولى البشائر بالنصر المبين على الصليبيين ، وغمر الفرح قلوب الشعب ، وتغنى الشعراء طويلاً بانطباعاته في نفسه ، من مثل قول شاعره ابن القيسراني :

هو السيفُ لا يُغنيكُ إلا جِلاذُهُ	وهل طوقَ الأملاكُ إلا نِجادُهُ
سَمَتَ قِبْلَةَ الإسلامِ فخرًا بِنِباسِهِ	ولم يكِ يسمو الدينُ لولا عِمادُهُ
فياظفرا عمَّ البلادَ رِشادُهُ	بمن كان قد عمَّ البلادَ فسادُهُ
فلا مُطلتُ إلا وشدَّ وثاقُهُ	ولا مُوثقُ إلا وحلَّ صِفاذُهُ
ولا مِنبرُ إلا ترنَّحَ عودُهُ	ولا مصحفُ إلا أنارَ امتدادُهُ
فقلْ للملوكِ الكُفْرِ تُسليمُ بعدها	ممالكها إن البلادَ بلادُهُ

وابن القيسراني ينوه بالسيف ، فهو رمز القوة في الأمة ، وهو الذي يسندها ويحميها ، ويرد كيد أعدائها في نحورهم . وها هو بيد عماد الدين وجنوده البواسل وقد جعل الدين الحنيف وقلبه يشعرا بالزهو ، لما حقق من نصر مجيد على حملة الصليب ، فإذا دعاؤهم تسيل أنهارا وإذا أشلاؤهم تملأ كل طريق وإذا أسراهم

يعدون بالآلاف ، فلم يكذبونهم أحد ، إذ هم بين قتيل وأسير في السلاسل والأغلال . وقد رُدَّت إلى كل من ألقوا به من المسلمين في السجون حربته وحطَّمت عنه الأغلال والقيود . وعادت الرها إلى ديار الإسلام ، وعاد الخطباء إلى منابرها يوم الجُمع ، وعاد القرآن يُتلى في مساجدها . فما أعظم فرحة الشعب ، وما أعظم فرحة شاعره ، وإنه ليهدد حَمَلَةَ الصليب في ديار الشام ، بأنه ينتظرهم نفس المصير ، وخير لهم أن يستسلموا عن يد صاغرین خانعين . ولا يلبث عماد الدين أن يلبي نداء ربه بعد سنتين من نصره العظيم ، وقد حَمَلَ الأمانة لابنه نور الدين أمير حلب ، ويحمل أعباءها مجاهداً في سبيل الله بكل ما يستطيع هو وجنده من عُدَّة وقوة ، ويُنزَل بحملة الصليب ضربات قاصمة ، ويستولى على كثير من حصونهم ويمعن فيهم قتلاً وأسراً لصناديدهم . وتسوَّل لصاحب إنطاكية نفسه أن يزحف لحربه بجيش كثيف فيفتك بجيشه فتكاً ذريعاً ، ويخزُّ في الميدان صريعاً متخبطاً في دمايته ، وتغمر نشوة الظفر الشعب كله ، ويصدر عنها ابن القيسراني في قصيدة باثية له يقول في تضاعيفها :

هَذِي العزائمُ لا ما تدعى القُضْبُ	وذى المكارمُ لا ما قالتِ الكتبُ
أغرَّتْ سيوفكُ بالإفرنج راجفةٌ	فواذُ روميَّة الكبرى لها يَجِبُ
غضبتَ للدين حتى لم يفتك رِضاً	وكان دينُ الهدى مرَّضاته الغضبُ
فانهضْ إلى المسجد الأقصى بذي لَجِبِ	يُوليك أقصى المنى فالقدسُ مُرتقبُ
واثذنْ لموجك في تطهيرِ ساحلهِ	فإنما أنت بَحْرٌ لُجُه لَجِبُ

وهو يشيد بعزيمة نور الدين ومضائه في حرب حَمَلَةَ الصليب الذي فاق كل مضاء تحدثت عنه المعارك وكتب التاريخ ، مضاء مزق جيوشهم تمزيقاً ، وإن صواقعه التي يُنزِّها على رؤوسهم ليخفق لها قلب روميَّة وقلوب بابواتها الذين دفعوا الصليبيين إلى هذه الحرب المهلكة التي يصلون نارها الحامية . ويقول لنور الدين إنك غضبت للدين الخفيف غضبة مضرية ، لم تُسبِّق من هذا الجيش باقية ، وحرى بك أن تندفع بجنودك طاوياً الأرض إلى القدس وإلى المسجد الأقصى ، فتمحق الصليبيين الباغين هناك محققاً ، وها هو القدس يناديك ويدعوك ، لتنزل عليه بأمواج جنودك ، فتظهره

من رجس حَمَلَة الصليب ، وتطهر الساحل الشامي كله .

وكان نور الدين ما يزال ينازل الصليبيين ، وكأتما وهب حياته كلها لحرابهم ، وتتوالى انتصاراته وتتوالى هزائمهم ، ويفتح قلاعهم وحصونهم في شمالي ديار الشام . ومع كل فتح يتغنى الشعراء بمدائح تصور نضاله الحربي الرائع ، واقرأ في كتاب « الروضتين في أخبار الدولتين » : دولته ودولة صلاح الدين الأيوبي فستجد مؤلفه أبا شامة المقدسي يسرد كل فتح له سرداً تاريخياً ، يتلوه بأشعار المدح التي تعكس ابتهاج الشعب بفتوحه المتوالية . وكان نور الدين نافذ البصيرة ، فرأى من الحتم أن تتوحد مصر والشام تحت لواء واحد حتى تضرب جنودهما الصليبيين الضربة القاضية ، وكان قد شغله أمر مصر لما حملته الأنباء له من نوايا حَمَلَة الصليب لغزوها ، وحدث أن تحارب وزيرها : شاور وضرغام ، واستعان شاور به . فوجدها فرصة سانحة ، وأرسل إليه بنجدة يقودها أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، وتطورت الحوادث سريعاً ، فقتل شاور . وتولى الوزارة أسد الدين ، ولم يلبث أن توفى ، فوليا بعده صلاح الدين ، وسرعان ما توفى الخليفة الفاطمي العاضد ، فأعلن صلاح الدين انتهاء حكم الفاطميين ، وردَّ الخلافة إلى العباسيين . ولم يقف تعاقب الحوادث السريع عند ذلك ، فقد توفى أيضاً البطل نور الدين . وسرعان ما أعاد صلاح الدين لديار مصر والشام وحدتهما السياسية ، وكان ذلك كان إيداناً حقاً بأن يقضى على الصليبيين المغيرين القضاء المبرم ، فإذا هو ، بقيادته الرشيدة ، يُعدُّ جيشاً ضخماً مصرياً شامياً ، ويتسامع به حَمَلَة الصليب ، فيتجمعون من كل حصن قريب وبعيد ، ويُعدُّون جيشاً كثيفاً ، ويلتحم الجيشان لسنة ٥٨٣ في معركة حِطَّين الفاصلة المشهورة ، وفيها كان أفراد الجيش العربي يصيحون صيحة رجل واحد : الله أكبر . وسرعان ما أنزل الله عليهم النصر المبين ، فاستولوا منهم راغمين على صليب الصليبوت ، ومزقوهم شر ممزق ، وأسروا منهم مَنْ لا يُحصى عدده ، وعلى رأسهم صاحب بيت المقدس : جاي لوزيجنان ، وصاحب حصن الكرك والشوبك بالأردن : ريجنالد ، وقد قتله صلاح الدين بسيفه جزاءً وفاقماً لنقضه صلحاً معه وغدَّره بجماعة من المصريين مرَّوا بمحصنه : الكرك وسفكه لدمائهم ، وكان قد بنى أسطولا في العقبة لغزو مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وحطَّمه الأسطول

المصرى فى البحر الأحمر تحطيمًا . ومضى صلاح الدين بجيشه الباسل يستولى على كثير من مدن فلسطين ولبنان مثل بيت جبريل ( بر سيج ) ونابلس وقيسارية وحيفا وصيدا وبيروت ، وزحف على بيت المقدس وضيق عليها الحناق . حتى فتح له الصليبيون أبوابها وطهرها من رجسهم الأثيم . وكان لهذه الفتوح العظيمة رنات فرح وابتهاج تجاوبت بها قلوب الأمة العربية وأثنتها فى ديار العروبة ولإسلام جميعها ، ومضى الشعراء يتغنون بها فى الشام ومصر وفى كل مكان ، مادحين ومهنيين قائدها المظفر صلاح الدين الذى ردد إلى الأمة قواها كاملة ، وأجبر حمله الصليب الغاشمين على الركوع تحت أقدامها خانعين مستذلتين ، وقرأ فى كتابه الروضتين فى أخبار الدولتين « فستجد فتوح صلاح الدين موصوفة وصفًا تاريخيًا ، ومع كل فتح بعض المدائح التى نُظمت فيه والتى تعكس الغبطة فى نفوس الأمة وأبنائها . ونكتفى من هذا الشعر الكثير أو قل هذا الديوان الضخم ببعض الأمثلة ، فمن ذلك قصيدة طنانة للعماد الأصهبانى مدح بها صلاح الدين عقب انتصاره فى معركة حطين بمثل قوله :

حططت على حطينَ قدرَ ملوكهم      ولم تُبق من أجناس كفرهمُ جنسنا  
بطونُ ذئابِ الأرضِ صارتُ قبورهم      ولم ترُضْ أرضُ أن تكون لهم رمسا  
سبأيا ، بلادُ الله مملوءةٌ بها      وقد شُرِيتَ بحسًا وقد عُرضتْ نحسنا  
يُطاف بها الأسواقُ لا راغبٌ لها      لكثرتها كم كثرةِ ثوجب الوكسا

والعماد يصف سحق صلاح الدين لجموع الصليبيين وملوكهم سحقاً لم يبق منهم ولم يذر . وكيف تحولوا مآدبة كبرى للذئاب ، وكأنما أبت الأرض أن يكون لهم فيها قبور خشية أن يدنسوها بأجسادهم ، ويا ويح الأسرى منهم ، إنهم يملئون البلاد وينادى عليهم فى الأسواق ، ولا من مشر يشريهم ، لكثرتهم كثرة مفرطة ، حتى قيل إن من كان يشاهد قتلاهم كان يظن كأن الصليبيين جميعا قتلوا ولم يُبق القتل للأسر أحداً منهم ، ومن كان يشاهد الأسرى كان يظن - لكثرتهم - أن جميع الصليبيين أسروا . وبلغ من كثرتهم أن الأسير منهم كان يباع بثلاثة دنانير ، ولا يجد من يرضاه لنفسه عبداً مملوكاً . ويصف ابن سناء الملك

فتوح صلاح الدين المتعاقبة مهثا له بفتحته الكبير للقدس ، منشداً :

قد ملكت الجنان قصراً فقَصُراً      إذ فتحت الشّام حِصْناً فحِصْناً  
لك مدحٌ فوقَ السموات يُنشأ      ومحلٌّ فوقَ الأَسِنَّةِ يُبْتَى  
قصدتُ نحوكَ الأعادى فردُّ اللّاه      ما أملوه عنك وعنا  
لم تلاقِ الجيوش منهم ولكنَّ      لك لاقيتهم بلاداً ومُدناً

ومضى ابن سناء الملك في القصيدة يشير إلى أخذ صلاح الدين لصليب الصلבות في معركة حطين وفتحته لبيت المقدس وطبرية و نابلس وحصون عسقلان والنّظرون وتبّنين وبيت جبريل . وعدّد في القصيدة أسماء ملوك الصليبيين وصاديدهم الذين جمعتهم سلاسله وأغلاله . وهذه المعارك والفتوح التي تآزر فيها الجنود المصريون والشاميون والأكراد قوم صلاح الدين أو كما كانوا يسمونهم التّرك هيأت للإحساس العميق بفكرة الوحدة العربية ، حتى لينشد ابن سناء الملك في إحدى تهنئاته لصلاح الدين بانتصاراته المحيطة :

بدولة التّرك عَزَّتْ مِلَّةُ العَرَبِ      وبابن أيوبَ ذَلَّتْ شِيعَةُ الصُّلْبِ  
وفي زمان ابن أيوبَ غَدَتْ حَلْبُ      من أرض مصرٍ وعادتُ مصرٌ من حَلْبِ

وكان معركة الصليبيين قديماً نفتت في روع الأسلاف فكرة الوحدة العربية على نحو ما نفتتها حديثاً معركة إسرائيل ، فأصبح جميع العرب من الخليج إلى المحيط يؤمنون بها في قوة . وبجانب ما سكبت البطولات في الحروب الصليبية من تلك الفكرة سكبت مشاعر كثيرة بالفخر والعزة وبالإرادة الباطشة الجبارة ، مما جعل الأفراد ، وفي مقدمتهم الشعراء ، يشعرون بشخصياتهم أقوى شعور ، وهو شعور كان يملؤهم استعلاء وإيماناً بأن شيئاً لا يستطيع أن يعترض مطامعهم ، وأنه إن وقف في طريقها أى عائق دمّره ودميراً ، ومن خير ما يصور هذا الشعور قول ابن سناء الملك مفاخرأ في حماسة ملتهبة :

سوايَ يخافُ الدهرَ أو يرهَبُ الرّدى      وغيرىَ يهوى أن يكون مغلداً  
ولكننى لا أرهَبُ الدهرَ إن سَطَا      ولا أحذر الموت الرّؤمَ إذا عدا

ولإنك عبدى يازمان وإننى على الكُرو منى أن أرى لك سيدا  
ولو علمت زهرُ النجوم مكانتى لخرتُ جميعاً نحو وجهى سُجداً

والقصيدة كلها فخرعات كأنه حُممٌ بركانية ، يقذفها بركان مشتعل ،  
بركان قوةٍ لا حدود لها ، قوة أنشأتها فى نفس ابن سناء الملك ومعاصريه انتصارات  
صلاح الدين على الصليبيين ، انتصارات خارقة ، وكأنما هى إحدى المعجزات .  
فلا عجب أن لا يرهب ابن سناء الملك وغيره من المصريين الموت لأنهم عرفوا من  
الملاحم الصليبية أن جنود مصر هم الذين يتحكمون فى الموت بسوقه إلى الصليبيين  
وما يذيقونهم من كئوسه . ولا عجب أيضاً أن لا يرهب الدهر وسطواته ، هو وأمثاله  
من المصريين ، لأنه أصبح من خدمهم وعبيدهم بصر فونه كيف يشاءون ، وكأنما دانت  
لهم الأرض ودانت أيضاً السماء .

ويتوقى صلاح الدين ويافا وعكا لا تزالان فى أيدي الصليبيين ، وتمر سنوات  
ويتربّع على عرش مصر السلطان الكامل ويضع صاحب عكا يده فى يد الصليبيين ،  
ويعدون أسطولا ضخماً لغزو دمياط ، وينزلونها ، وما يلبث السلطان الكامل أن  
يلقاهم ويسحقهم سحقاً ويدمر أسطولهم ويفرّوا إلى البحر المتوسط وما وراءه  
مدحورين . وأقيمت مواكب النصر فى كل الديار المصرية وتسامع العرب به فى كل  
مكان ، وكأنما عمّت الفرحة كل بلد بل كل دار ، وفى ذلك يقول البهاء زهير من  
قصيدة مدح بها السلطان الكامل :

بك اهتزَّ عطفُ الدين فى حُللِ النَّصرِ ورُدَّتْ على أعقابها مِلَّةُ الكُفْرِ  
وما فرحتْ مصرٌ بذلك وحدها لقد فرحتْ بِبغدادٍ أكثرَ منِ مِصرِ  
فمن مبلغُ هذا الهناءِ بِمَكَّةِ وَيَثْرِبَ ، يُنْهيه إلى صاحبِ القبرِ

والآيات قوية الدلالة على ما ذكرناه من الشعور بالوحدة العربية ، فهذا  
الانتصار العظيم بدمياط على الصليبيين لم تفرح به مصر وحدها ، بل فرحت معها  
بغداد وغير بغداد من بلدان الشام وغير الشام . والبهاء زهير يهنى به مكة والمدينة  
والرسول عليه السلام ، إنه عيد من أعياد العروبة والإسلام . ونمضى إلى سنة ٦٤٧

وتعاود الصليبيين فكرة غزو دمياط والديار المصرية ، ويقودهم لويس التاسع ملك فرنسا ، ويتقدم على حافة فرع دمياط متجهماً إلى المنصورة ويلتقى به الجيش المصرى ، ويمزق جيشه شرمزق ، ويؤسر في جماعة من الفرسان الصليبيين ، وتحمله مركب في النيل إلى المنصورة ، تُضربُ فيها الصنوج والطبول ، بينما الأسرى تجرُّهم الحبال والأغلال على جانبي النيل ، وأبناء الشعب من الفلاحين يهلملون . وسُجِنَ لويس في المنصورة بدار ابن لقمان كاتب الإنشاء ، ويقوم حارس على لويس هو الطواشى صبيح . ويفتدى لويس نفسه ومن بقي من حملته بأموال وفيرة . ويعود على وجهه إلى بلاده ذليلاً مدحوراً . وما تلبث نفسه أن تسوَّل له غزو تونس ، ويسمع بذلك ابن مطروح الشاعر المصرى ، فيرسل إليه بوعيد كان يحفظه كل مصرى لعصره ، وما يزال يردده المصريون إلى اليوم هازئين بلويس وحملته ، وفيه يقول :

قُلْ لِلْفَرَنْسِيِّسِ إِذَا جَنَّتْهُ	مَقَالَ صِدْقٍ مِنْ قَتُولِ نَصِيحٍ
آجَرَكَ اللَّهُ عَلَى مَا جَرَى	مَنْ قَتَلَ عُبَادَ يَسُوعَ الْمَسِيحِ
خَمْسُونَ أَلْفًا لَا يُرَى مِنْهُمْ	إِلَّا قَتِيلٌ أَوْ أَسِيرٌ جَرِيحٌ
وَفَقَّكَ اللَّهُ لِأَمْثَالِهَا	لَعَلَّ عَيْسَى مِنْكُمْ يَسْتَرِيحُ
دَارُ ابْنِ لُقْمَانَ عَلَى حَالِهَا	وَالْقَيْدُ بَاقٍ وَالطَّوَأَشَى صَبِيحُ

وكأنما كان حثف لويس التاسع في أمنيته ، إذ مات على أسوار تونس ، وأسرع جيشه بالعودة إلى دياره . وبذلك أخفقت جميع الحملات الصليبية وعم أوروبا اليأس من غز والشرق ، إذ رأوا دون ذلك حَزَّ الرقاب ، فلم يعودوا يفكرون في حملة جديدة . واستولى منهم الظاهر بيبرس على أنطاكية وطرطوس ويافا ، واستولى السلطان قلاوون على طرابلس ، وخلفه ابنه الأشرف خليل ، فاستولى على عكا آخر حصون حَمَلَة الصليب وكانت لذلك فرحة عظيمة في نفوس الشعب وأبنائه ، عبَّر عنها الشهاب محمود شاعر الشام بقوله :

الحمد لله زالت دولة الصُّلْبِ	وعزَّ بالسيف دينُ المصطفى العربى
ما بعد عكا وقد هُدَّتْ قواعِدُهَا	في البحر للشرك عند البرِّ من أرب

والشاعر يحمد الله العليّ القدير على نعمه العظيمة ، فقد تطهرت الأرض العربية من رجس حَمَلَة الصليب وأوزارهم ، وانمحت دولتهم إلى غير رجعة ، وعزّ الإسلام عِزًّا ما مثله عز ، فقد سقطت عكا آخر معاقلهم . وردّت إلى ديار الإسلام ، وهكذا ذهبوا وذهبت آمالهم هباء .

وفي أواخر العهد بهذه الحروب الصليبية اكتسح طوفان التتار أواسط آسيا ، وما زال موجه يترامى ويتدافع . حتى جرف بغداد وقضى على الخلافة العباسية ، كما مر بنا في غير هذا الموضع . وتعالّت أمواجه إلى الشام ، وأخذت تسقط إلى الجنوب ، وخرج إليها الجيش المصرى بقراده العظام ، وعلى رأسه الظاهر بيبرس ، فأوقف السيل ، بل ردّه إلى قراره ، على نحو ما هو معروف عن موقعة عين جالوت بالقرب من بيسان في فلسطين ، وسرعان ما انحسر السيل عن ديار الشام جميعها . وظل الظاهر بيبرس للتتار يراقبهم ، فكلما حدثتهم أنفسهم بغزو الشام انقضّ عليهم بجموعه ، وهزمهم هزيمة ساحقة كهزيمتهم في عين جالوت ، وفي ذلك يقول له الشهاب محمود :

مِرٌّ حَيْثُ شِئْتَ لَكَ الْمُهَيْمِنُ جَارٌ      وَاحْكُمْ فَطُوعٌ مَرَادُكَ الْأَقْدَارُ  
لَمْ يَبْقَ لِلدِّينِ الَّذِي أَظْهَرْتَهُ      يَارُكُنْتَهُ عِنْدَ الْأَعَادِي نَارُ  
شَكَرْتُ مَسَاعِيكَ الْمَعَاقِلُ وَالْوَرَى      وَالتُّرْبُ وَالْآسَادُ وَالْأَطْيَارُ

وهو يقول له إن النصر في ركابك أيما وليّيت وجهك ، وإن الأقدار تسعفك بكل ما تريد ، حتى لكأنها طوع إشارتك ، ولقد رفعت من شأن الدين الحنيف وقضيت على أعدائه القضاء المبرم ، فهيناً لك . وإن الحصون التي رددتها على الإسلام والناس والأرض بما فيها من وحش وطير ، كل ذلك يشكر أباديك . ومعروف أننا لا نصل إلى العقد الأخير من القرن السابع الهجرى ، حتى يدخل في الإسلام غازان حفيد هولاكو هو وجنوده بفضل المتصوفة الذين تغلغوا في ديارهم ، وفتحوها للإسلام سلماً دون سيف أرومخ . وإنما بكلمة الدين الحنيف الطيبة ودعوته النيرة .

وكان الهجاء السياسى نشطاً في العصر بمصر والشام . وخاصة في عصر الدولة

الفاطمية ، لما لجت فيه من عقائد شيعية إسماعيلية تخالف مذهب أهل السنة ، إذ مضوا ينشرون في الناس أن الأئمة ينالون في أدوار سبعية ، أي أن كل دور يتكون من سبعة أئمة ، وسابعهم هو الإمام الناطق عن القوى الخارقة ، وهو العقل الفعال ممثل العقل الأول ، وله نسبتان : نسبة إلى عالم القدس ونسبة إلى عالم الطبيعة ، والأئمة الستة قبله ممهّدون له ، وهم نفوس كلية تفيض عنه . وكانوا يضيفون إليه صفات الله ، بحجة أنه إلهى الذات! وادعوا له علم الغيب هو والأئمة أو الخلفاء . وكل ذلك كان يضيق به الشعب ، وكان شعراؤه يعبرون عن هذا الضيق بصور مختلفة ، فن ذلك ما يُروى من أن الخليفة الفاطمي العزيز صعد المنبر يوماً ، فرأى ورقة ، مكتوب فيها :

بالظلم والجور قد رضينا وليس بالكفر والحماقة

إن كنت أعطيت علم غيب فقل لنا كاتب البطاقة

ويقول ابن تغرى بردى في كتابه النجوم الزاهرة تعليقا على البيتين والخبر : «وذلك لأنهم ادّعوا علم الغيبات والنجوم ، وأخبارهم في ذلك مشهورة» . والشاعر يسجل في البيتين ظلمهم للرعية وأنهم يسومونها الجور والخسف ، كما يسجل رأى المصريين في معتقداتهم التي لحصنا جانباً منها ، والتي تصور انحرافهم عن جادة الدين ، ولذلك ظل المصريون بعيدين عن عقيدتهم ولم تشع بين أبناء الشعب ، وكانوا يسخطون عليهم سخطاً شديداً لتماديتهم في اتخاذ وزراء لهم من اليهود ممن أعلنوا إسلامهم ، وكان المصريون يشكون فيهم وفي إسلامهم ويرون أنهم ابتغوا بإعلان إسلامهم الوصول إلى الوزارة والمناصب الكبرى في الدولة ، ومنهم يعقوب بن كلّس وزير العزيز بن المعز ، ومنهم صدقة بن يوسف الفلاحى وزير المستنصر ، وكان ذلك يملأ المصريين غضبا على الفاطميين ، وصوّر غضبهم أحد الشعراء ساخرأ سخرية مرة :

يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم وقد ملكوا

العز فيهم والمال عندهم ومنهم المستشار والملك

وهي سخرية من الفاطميين قاتلة ، واضطّر المستنصر نزولاً على إرادة الشاعر والشعب إلى اعتقال الوزير الفلاحى ، ويقتل ، وترد الوزارة إلى أربابها

من كبار رجال الدولة الشيعيين أمثال الجرجراني واليازوري وابن المدبر . وقد كان ذلك سبباً في سخط المصريين على الفاطميين وانضافت إليه مبادئ عقيدتهم الشيعية الغالية غلوًا شديدًا ، كما أسلفنا ، مما جعل المصريين يكفرون أيديهم عن التعاون معهم ، وجعل شعراءهم يتعرضون لهم بهجاء سياسي شديد . وبالمثل كانت كثرة الشعب في الشام غاضبة عليهم ، ويكثر الشعراء هناك الذين كانوا يصورون مظالم الحكم الفاطمي ، وفي مقدمتهم أبو العلاء المعري ، وكان شديد التفكير في فساد الحكام لعصره ، ولذلك مضى في جوانب مختلفة من أشعاره يتهمهم فيها بالحسنة ، وأنهم لا يصلحون لحكم الشعب ، من مثل قوله :

يسوسون الأمور بغير عقلٍ      وينفذُ أمرهم فيقال ساسه

فأف من الحياة وأف مني      ومن زمن رياسته خساسة

فأحسُّ الناس يتولون حكم الرعية ، وليسوا جديرين بأن يحملوا تلك الأمانة ، إذ يختانونها صباح مساء ، لا يرعون في الشعب ذمة ولا عهداً ، وإنه ليصرخ باسم أفراده :

مُلَّ المقامُ فكم أعاشر أمةً      أمرت بغير صلاحها أمراؤها

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها      وعدوا مصالحها وهم أجراؤها

وهو يقول إن الرعية استأجرت الحكام - بما تعطيه من رواتب - لكي يقوموا على شئونها ، ويصلحوا من أمورها ، غير أنهم لم يتحملوا المسؤولية التي ألقوها على كواهلهم ، بل لقد عارضوها ونقضوها نقضاً وعكسوها عكساً ، بظلمهم وعسفهم الذي لا يطاق ، وكأنما استخدمتهم ليكيدوا لها كيداً أثيراً . وكان - كبقية أفراد الشعب - يألم لنظام الإقطاع الذي استشرى والذي عم بلاؤه في اعتصار الأغنياء للفقراء ، غير تاركين لهم من كفاف العيش ما يسدون به رقهم ويسترون به عُرْيهم ويتيح لهم شيئاً من المأوى والمسكن . وجعله الإحساس للعميق بذلك يحمل على الأغنياء الذين يبتزون الفقراء البؤساء في أشعار كثيرة ، وتارة يعقظ عليهم بسياط أشعاره ، وتارة ثانية يستعطفهم ويحاول أن يلين قلوبهم لأبناء الشعب للرابضين في البؤس والمسغبة ، فالناس جميعاً شركاء في حياة إنسانية واحدة ،

وكل شخص يقوم فيها بعمل هو جزء من كيائها ، يقول :

الناس للناس من بدوٍ وحاضرةٍ بعضٌ لبعضٍ وإن لم يشعروا خدماً  
وكلٌ عضوٍ لأمرٍ ما يمارسُه لا مَشَى للكفِّ بل تمشى بك القدمُ

فالناس جميعاً يخدم بعضهم بعضاً ، وبخدماتهم تقوم الحياة ، إذ كل  
منهم ينهض بمرفق من مرافقها ، وكل منهم يؤدي منفعة من منافعها ، وكما أن لكل  
عضو في الجسد وظيفته كذلك لكل فرد في المجتمع وظيفته وعمله ، فهو لبنة في  
كيانه وحواطه ، وحرى لذلك أن تتآزر اللبنة وأن تتعاون وأن يمد الغنى يد العون  
والمساعدة لأخيه الفقير البائس ، وإنه ليعجب من الأغنياء الذين يملئون بطونهم  
غير مفكرين في يؤس البائسين وعوز المعوزين ، يقول :

كيف لا يُشرك المضيقين في النعمة قومٌ عليهم النعماء

وهو يطلب إلى أصحاب الثراء أن يُشركوا إخوانهم الفقراء فيما منحهم الله من  
نعمة ، حتى يخففوا عنهم ما يعيشون فيه من الضنك والبؤس ، بل ما يتجرعون من  
مرارة الفقر وشظف العيش ، بينما هم يتقبلون في أعطاف النعم غارقين إلى آذانهم  
في أسباب الترف وملذات الحياة ، وإنه ليصبح :

لو كان لي أو لغيري قدرٌ أنملةٍ من البسيطة خِلْتُ الأمرَ مشتركاً  
فأبو العلاء لا يكاد يتصور شخصاً أنعم الله عليه بالثراء يفصل نفسه عن  
مجتمعه ، بل إن كل ما يملك الإنسان مهما كان ضئيلاً ينبغي أن يكون في خدمة  
المجتمع ، حتى لو ملك قدر أنملة من الأرض لظنه شركة بينه وبين غيره من الناس .  
وأبو العلاء في هذا كله إنما كان يعبر عن الجماعة التي عايشها في عصره ويترجم  
عن أحاسيسها ومشاعرها ترجمة صادقة .

وكان الشعب حين يباغته موت بطل من أبطاله العظام يبكيه بدموع غزار  
ويبكيه معه الشعراء ، ومن بكاه الشعب طويلاً حين لبي نداء ربه صلاح الدين  
الذي دوخ الصليبيين وسحق جموعهم في الشام واستخلص منهم مدنه ، واستسلموا له  
يعلوهم الصغار ، فكان حرياً بالشعب أن يُطيل بكاءه عليه ، وبكاه غير شاعر ،

من مثل العماد الأصبهاني ، وله فيه مرثية رائعة يقول في تضاعيفها :

لا تحسبوه مات شخصاً واحداً      قد عمَّ كلَّ العالمين مماتُهُ  
لو كان في عصر النبي لأُنزِلَتْ      في ذكره مِنْ ذكره آياته  
فعلى صلاح الدين يوسف دائماً      رضوانُ ربِّ العرشِ بل صلواتُهُ

والمرثية كلها تفجع شديد على صلاح الدين وبيان لمدى خسارة الإسلام والشعب فيه وعرضٌ لبلائه الرائع في جهاد الصليبيين ، بلاء استحق به رضوان ربه وفراديس جنانه وإنه لني أعلى عليّين . رحمه الله وقدّس روحه . ونجد الشعراء المصريين قبيل هذا العصر يكون الدولة الطولونية طويلاً ، حتى إذا سقطت الدولة الفاطمية لم نجد أحداً من شعراء مصر يبكيها ، لمبادئها الشيعية الغالية ، التي صورناها في غير هذا الموضوع ، والتي جعلت المصريين ينفرون منها نفوراً شديداً ، وخاصة أنها كانت تردت في مهاوي من الضعف والانحلال ، واستولى الصليبيون منها على كثير من المدن في الشام ، فكان الشعب يتمنى زوالها وأن يظهر منقذ يرد إلى الشعب قوته وكرامته ومدنه التي استحوذ عليها الصليبيون . ومع ذلك نجد شاعراً فاطمياً يمينياً يرفي الدولة الفاطمية بمثل قوله :

رَميتَ يادَهُرُ كَفَّ المجدِ بالشللِ      وجِيدُهُ بعد حُسنِ الحَلِي بالعطَلِ  
والله لا فاز يومَ الحَشْرِ مُبِغضُكم      ولا نجا من عذابِ الله غيرُ ولي  
بابُ النجاةِ هُمُ دُنْيا وآخرةً      وحبُّهم فهو أصلُ الدينِ والعملِ

وهو رثاء سياسي أراد به إلى ثورة المصريين على صلاح الدين ولكن أتى له ! ؟  
لقد استبشر المصريون بحكمه وتحققت أحلامهم وآمالهم فيه تحقّقاً رائعاً . وفي الواقع كانت هذه القصيدة تعبيراً صريحاً عن مؤامرة اشترك فيها عمارة مع بعض شيعة الفاطميين ، وهي مؤامرة أدت كما أدت القصيدة معها إلى صلّبه . ولعل المصريين لم يبكوا دولة بعد الدولة الطولونية كما بكوا دولة المماليك حين قضى عليها العثمانيون ، وكانت قد نهضت بمصر نهضة عظيمة في العمران والثقافة والحضارة ، فأحسوا في زوال دولتهم خسارة لا تعوّض ، وناحوا عليها نواحا طويلاً من مثل قول مؤرخهم ابن إياس :

نوحوا على مصرٍ لأمرٍ قد جرى من حادثٍ عمّت مصيبته الورى  
 زالت عساكرها من الأتراك في غمض العميرين كأنها سنة الكرى  
 وهو يريد بالأتراك المماليك .

وظل الغزل تعبير عاطفة الحب الإنسانية الخالدة يتردد على الألسنة في القطرين الشقيقين : الشام ومصر ، ونظم شعراؤهما قصائد ومقطوعات منه كثيرة ، تصور ما يمنحه الشعراء ومن حولهم المرأة من عاطفة الحب والود ، كما تصور ما يثير الحب في نفوس أصحابه من الخواطر والأفكار وما يجنون من ثمرات المودة وزهراتها وما يصطلون من نيران الفراق وما يستشعرون من لوعاته . ومن أروع ما نقرأ من شعر الحب في الشام غزليات أبي فراس الحمداني الذي مر ذكره ، وكان فارساً مقداماً ، فخلط غزله بحماسة ملتهبة تميزت بها خاصة رومياته ، ونكثت بأبيات طريفة ، من مقدمة رائيته الحماسية التي أنشدنا بعض أبياتها ، وقد تغنت بها المرحومة السيدة أم كلثوم غناء بديعاً :

أراك عَصِي الدَّمْعِ شِيمَتُكَ الصَّبْرُ      أما للهوى نَهَى عليك ولا أمرُ  
 بَلَى أنا مشتاقٌ وعندى لَوْعَةٌ      ولكنّ مثلى لا يُداع له سِرُّ  
 معلّتي بالوَصْلِ والموتُ دونهُ      إذا ميتٌ ظمآنًا فلا نزلَ القَطْرُ  
 تسائلني من أنت ؟ وهى عَلِيمَةٌ      وهل يفتى مثلى على حاله نُكْرُ  
 فقلتُ كما شاءتْ وشاء لها الهوى      قَتِيلُكِ ! قالت : أيهم فهمُ كُثْرُ  
 فقلتُ لها : لو شئتِ لم تتعنتي      ولم تسألني عنى وعندك بي خُبْرُ  
 فقالت : لقد أزرى بك الدهرُ بَعْدَنَا      فقلتُ : معاذَ الله ، بل أنتِ لا الدهرُ

فالحب متقد بين جوانحه ، وهو أبى النفس كبير القلب يكتم دموعه وحزنه وشجاءه ، إنه فارس يعرف كيف يتجشم مصاعب الحب والحرب صابرا ، وإنه ليعلن إلى صاحبتة في صراحة شوقه الظامىء ظمأ لا ينتهي إلى لقاءها والنعيم بوصلها ، غير آبه بسيف قومها ولا حاسب لشجعانهم حسابا ، حتى لو لقي الموت في سبيل لقاءه بها . وتفجؤه باللقاء المرموق ، وتساءله سؤال العارفة الواهة بمحبوبها ، ملهوفة على تبين السبب فيما أصابه من نحول واعتراه من شحوب ، ويحيبها :

إني قتيلك قتيل حبك ، وبجيبه مدلّة : أي قتلاى ، فعشاق كثيرون ومن وقعوا في شباك غرامى أو تعثروا بها لا يحصون عدداً . ويقول لها : إنها تعرفه عن يقين . وتأسى لما أصابه من ضنى ونحول ، وتنسب ذلك إلى الدهر وخطوبه ، ويقول لها : لا تموتى ، فأنت سبب كل ما اعترانى من ضناً وعناء .

ويزدهر الغزل بمصر في أواسط هذا العصر ، وكانت تسعف المصريين في ذلك فطرتهم الدمة وما يُطَوَى فيها من لطف ورقة حسن وأيضاً ما يمتازون به من خفة الظل وما يمتاز به وادبهم العريض الطويل من سهولة العيش ، وهى سهولة تسربت إلى لغة غزلهم بل إلى لغة شعرهم جميعه ، فجميع أشعارهم تمتاز بسهولة مفرطة ، حتى ليتمكن أن نقول إنها كانت خاصة من خصائص الشعر المصرى الوسيط ، غزلاً وغير غزل ، سهولةً طُبعت بها الروح المصرية والبيئة المصرية ، وهى سهولة تُشيع في الغزل غير قليل من الرقة والنعومة ، ويرى ذلك بوضوح عند ابن سناء الملك ، مما جعله يكثر من الغزل بكفيفة فاقدة البصر إفراطاً في الدمائه والعطف والشفقة ، وله غزليات كثيرة رقيقة تحملها أشعاره وموشحاته من مثل :

الْبَدْرُ يَحْكِيكَ لَوْلَا نَجْنِيكَ  
بِالْضَمِّ أَجْنِيكَ لِلصَّدْرِ أَذْنِيكَ

ولا يقل عنه خفة روح ورقة ودمائة معاصره ابن النبيه، وله أشعار كثيرة كان يتغنى فيها المغنون في مصر وغير مصر من البلدان العربية ، لعصره وبعد عصره إلى اليوم ، وكأن ما ينظمه كان يلتصق باللسنة المصريين فلا يزالون يتغنون به على شاكلة هذه القطعة التى لا يزال يغنى فيها المغنون والمغنيات حتى عصرنا الحاضر :

أَفَدِيهِ إِنْ حَفِظَ. الْهُوَى أَوْ ضِيْعَا  
مَنْ لَمْ يَذُقْ ظَلَمَ الْحَبِيبِ كَرِيْقِهِ  
مَلِكَ الْفَوَادِ فَمَا عَسَى أَنْ أَصْنَعَا  
حُلُوًّا فَقَدْ جَهَلَ الْمَحَبَّةَ وَأَدْعَى  
صَبْرَ الْجَمِيلِ فَقَدْ عَفَا وَتَضَعَّضَا  
ضَمَّتْ جَوَانِحُهُ فَوَادًا مُوجَعَا  
هَلْ فِي فَوَادِكَ رَحْمَةٌ لِمَتِيْمٍ

هل من سبيلٍ أنْ أبتُ صبايتي      أو أشتكى بَلَوَايَ أو أتوجعاً  
إني لأستحي كما عَوَّدتني      بسوى رضاك إليك أن أتشفعاً

والأغنية تسيل رقة ونعومة مفرطتين ، وهو يقف أمام محبوبته في خشوع مفتوناً بجمالها الذي يبتّ الحب والفتنة في كل نفس ، وإنه ليفديها بروحه حفظت الهوى أو ضيعته ، فقد ملكت عليه مشاعره وفؤاده ، وحتى ظلمها له يجد فيه لذة : يجدها لوعته وحرقة قلبه . ويسترحمها لفؤاده المومع الذي يتفتت ألماً ، ويتمنى لقاءها كما يتمنى شفيعاً له عندها ، لعلها ترق له وتمنوع عليه ، ويتعثر بالحجل والحياء أن يكون له شفيع لذيها سوى رضاها . وكلها معان مفرطة الرقة . ولا يقل عنه في غزله رقة حس ورهافة شعور معاصره البهاء زهير على نحو ما نرى في قوله :

تعيش أنت وتبقي      أنا الذي متُّ حقاً  
حاشاك يا نورَ عيني      تلقى الذي أنا ألقى  
يا أنعمَ الناس قُلْ لى      إلى متى فيك أشتقى  
يا ألفَ مولايَ أهلاً      يا ألفَ مولايَ رفقاً  
لم يبق منى إلا      بقيةً ليس تبقى

وكثير من غزل البهاء كان يغنى في عصره وبعد عصره بوطنه وغيره من الأوطان العربية ، وأسلوبه فيه بل في جميع شعره من الضرب المعروف باسم السهل الممتنع ، وهو فيه أو قل في لفظه يرفع الحواجز بين لغة الشعر ولغة أهل القاهرة لعصره ، حتى ليقترّب من لغتهم قريباً شديداً ، وغاية ما هناك من فروق أنه يُعرب كلامه والعامية مصر لم تكن لعهد تعرب كلامها . وهي ظاهرة بدأت في الشعر المصرى قبله عند ابن سناء الملك وابن النبيه ، ولكنه هو الذى أوفى بها على الغاية ، ولعل القارئ لاحظ أن كلمة « يانور عيني » في الأبيات السالفة من الكلمات التى تشيع على ألسنة العامة في مصر . وغزله مليء — مثل بقية أشعاره — بأساليب العامة وألفاظهم من مثل قوله :

من اليوم تعارفنا      ونطوى ما جرى منّا  
ولا كان ولا صارَ      ولا قلتم ولا قلنا

وقوله :

كلُّ ما يرضيك عندي فعلى رأسى وعينى

وقوله :

كان ما كانَ بيننا وسلامٌ عليكم

وقوله :

ملكتهُ روحى ويا ليتهُ لورق أو أحسنَ لما ملكك

وقوله :

وإن كانَ ولا بُدَّ من العتبِ فبالحُسنى

وقوله :

إياك يَلْتَرى حديثاً بيننا أحدُ فهم يقولون : لِلحِيطانِ آذانُ

وكلمات : « ولا كان ولا صار » « ولا قلم ولا قلنا » و « على رأسى وعينى » وشطرا البيت الرابع مما تداوله العامة المصرية إلى اليوم ، وكذلك كلمات : « ملكته روحى » « وإن كان ولا بُدَّ » و « للحيطان آذان » وهو مثل تلوكه العامة حتى اليوم . ومن أهم ما يميز الغزل عند البهاء زهير وابن النبيه الوجد المبرح فيه ، ونؤمن بأنهما ومن عاصرهما من الشعراء المصريين استلهموا في هذا الجانب الشعر الصوفى الذى كان شائعاً على كل لسان حينئذ ، والذى كان يحمل وجداً لا يماثله وجد ، فقَبَسَ البهاء ومعاصروه من هذا الوجد ما أضاع جوانب الغزل الإنسانى عندهم وحماه من السقوط فى وهاد التكلف والتصنع لأصداف البديع كما حماه من أدران الجسد والغرائز النوعية ، فلم تَطْفُ على سطحه إلا قليلاً . ويخاطبنا البهاء كما رأينا بصيغ قريبة من صيغ الحياة اليومية لعصره ، إن لم تكن هى نفس هذه الصيغ التى لا تزال تعيش فى عاميتنا . وفى ذلك دليل واضح على تمثل الشعر العربى للروح المصرية تمثلاً دقيقاً ، وأنه سعى جاهداً ليلتصق بألسنة المصريين وليصبح الترجمان الطبيعى لكل ما يخالجهم من عواطف ومشاعر وأهواء متباينة .

ولعل مصر لم تعرف عصرًا نما فيه الشعر الصوفى نموًّا واسعاً مثل هذا العصر ، وكانت قد هيأت لذلك بقوة الحروب الصليبية والتتارية ، وكان نور الدين

وصلاح الدين والظاهر بيبرس يكثر من بناء الزوايا للصوفية ، وكانت تسمى رُبُطًا جمع رباط وهو مكان تجمُّع الجند من المتصوفة للحرب . وكانوا يتقدمون في كل جيش الصنوف حاثين على جهاد أعداء الإسلام نثرًا وشعراً . ونجد لكل شيخ صوفي كبير طريقة يتميز بها ومريدين أو تلاميذ يتبعونه ، وعادة كان يرسل بهم إلى البلدان والقرى القريبة والبعيدة ، وسرعان ما يصبح له أتباع كثيرون في الشعب يرددون أشعاره وتلوونها أفواه الناس من حولهم . وأول من يلقانا منهم بمصر ابن الكيزاني المتوفى سنة ٥٦٠ وكانت له بمصر وسواحل الشام المقاومة للصليبيين فرقة تنتمي إليه تسمى الكيزانية . وكان له ديوان شعر يتهافت الناس على تحصيله لما أودع فيه من الشعر الصوفي الرائع ، وقد روى العماد الأصفهاني في كتابه « الخريدة » نحو ثلاثمائة بيت من أشعاره ، وكلها تصور حب الذات الإلهية وما يثير الصوفية من أحوال ومقامات ومواجد ، وهي أشعار عذبة سوية من مثل قوله :

تَلذُّ لِي فِي هَوَى كَيْلَى مَعَاتِبِي	لَأَنَّ فِي ذِكْرهَا بَرْدًا عَلَى كَبِدِي
وَأَشْتَهِي سَقَمِي أَنْ لَا يَفَارِقَنِي	لَأَنَّهَا أَوْدَعْتَهُ بَاطِنَ الْجَسَدِ
وَلَيْسَ فِي النَّوْمِ لِي مَا عَشْتُ مِنْ أَرَبٍ	لَأَنَّهَا أَوْقَفَتْ جَفْنِي عَلَى السُّهُدِ
وَلَوْ تَمَادَتْ عَلَى الْهَجْرَانِ رَاضِيَةً	بِالْهَجْرِ لَمْ أَشْكُ مَا آتَى إِلَى أَحَدٍ
اللَّوْمُ أَشْبَهَ بِي مِنْهَا وَإِنْ ظَلَمْتُ	أَنَا الَّذِي سَقَمْتُ حَتَّى فِي الْهَوَى بِيَدِي

والصبابة الصوفية واضحة في الأبيات ، وهي لا تفرق في شيء عن صبابة العذريين ، بل هي تزيد عليها لوعة وحرقة ، إذ يلد لابن الكيزاني ذكر ليلي لأن في مجرد ذكره لاسمها ما يشفى ظمأه ، وإنه ليكتفى به إذ لا أمل له في اللقاء ، وهو سعيد بسقمه وضناه وسهامه أبد الدهر ، راض بالهجران لا يشكو ولا يتبرم ولا يتلوم ، فهو الذي ساق نفسه إلى هذا الحب وآلامه ، بل إن آلامه متاع ما بعده متاع ، ويقول :

يَا كَاتِمَ الْحَبِّ وَالْأَجْفَانَ تَهْتِكُهُ	وَطَالِبَ الْعِتْقِ وَالْأَشْوَاقِ تَمْلِكُهُ
شَرَطُ الْمَحَبَّةِ أَنْ لَا يَشْتَكِيَ مَلَأَ	مَنْ قَد رَأَى أَنْ قَرَطَ الْحَبَّ يُهْلِكُهُ

والصبرُ تحت مذلاتِ الهوى أبداً      عزُّ فما منصفٌ في الحبِّ يتركه  
دمُ المحبِّ بأيدي الحِبِّ مبتدلاً      إن شاء يمنعه أو شاء يَسفكه

فهو لا يشكو مللاً ولا ألماً ، بل هو يحب حباً نبيلاً سامياً يتناسب مع جلال المحبوب وسمو ذاته ، حباً يعتصم فيه بالصبر ، مهما لقي من عذاب ومهما برحت به الآلام ، بل لا آلام ولا عذاب ، بل نعيم ما بعده نعيم ، نعيم يرضى فيه حتى بالقتل وسفك الدم . ولا قتل ولا سفك دم ، وإنما هي لغة المحبين العذريين يستخدمها ابن الكيزاني في التعبير عن مدى متاعه بحبه الإلهي ، ويكثر من تصوير أعراض الذات العلية عنه ، وهو مستعر الفؤاد يقول :

يا مَنْ يَبِيه على الزمان بحسنه      اعطِفْ على الصَّبِّ المشوقِ التائه  
أضحى يخاف على احتراق فؤاده      أسفاً لأنك منه في سَوْدائه

فيران حبه تأخذه من كل جانب ، وهو أبداً ظامئاً منعطش إلى رؤية محبوبه ، ومحبوبه معرض عنه ، والدمع يجري في مآقيه ، ويكاد الصبر يطير من صدره ، فلا وصال ولا لقاء ، بل دائماً هجر وعذاب ، وهو مع ذلك راض بنصيبه ، مستسلم لحظه ، لا يطلب طلباً لحبه ودائه ، يقول :

اصْرِفُوا عني طيبِي      ودَعُونِي وَحَبِيبي  
عَلِّمُوا قلبي بذكرِ      هُ فَقَد زاد لَهِيبي  
طاب هَتَكِي في هواهُ      بين واِش و رقيبِ  
ليس من لَامَ وإنْ أَطُ      نَبَ فيه بِعصيبِ  
جسدي راضٍ بِسُقْمِي      وَجُفُونِي بِنَحِيبي

وهو لا يطلب طبيياً ، لأن داءه هو نفس دوائه ، وهو لا يريد أن يبرأ من دائه ، وهو في الظاهر داء وفي الباطن دواء . والقطعة بدیعة في تصوير مبدأ التوكل على الله عند المتصوفة . وإنما أطلنا الحديث عن ابن الكيزاني لأن غزله الصوفي كان يشيع على السنة العامة بمصر لعصره ، وكأنه يفصل من نفس لغتهم اليومية ، وكان أتباعه مصر وسواحل الشام ينشدونه في أذكارهم ومجالسهم طويلاً .

واشتهر بعد ابن الكيزاني بمصر ابنُ الفارض الملقب بسلطان العاشقين .  
 وشعره الصوفي في الحب الإلهي أروع ما خَلَّفَ المتصوفة على مرِّ العصور في تصوير  
 الوجد المضطرب والتلهف الظامىء إلى رؤية الذات العلية وهو يتخذ وسيلته إلى ذلك  
 لغة الحب العذرى القاصرة عن الإحاطة بدقائق حبه ، وما أوقد في فؤاده من  
 جذوة لا تنطفئ نيرانها أبداً ، إلا أن يتحقق له ما يريد من انمحاء في الذات  
 الإلهية حتى يغيب عن الحس بحياته . يقول :

ما بينَ مُعْتَرِكِ الأحْدَاقِ والمُهْجِ      أنا القَسِيلُ بلا إثمٍ ولا حَرَجِ  
 ودَعْتُ قَبْلَ الهوى رُوحِي لِمَا نَظَرْتُ      عَيْنَايَ مِنْ حُسْنِ ذَاكَ المَنْظَرِ البَهْجِ  
 عَدَبْتُ بِمَا شِئْتُ غيرَ البعدِ عنكَ تجدُّ      أوفى مَحَبًّا بما يُرْضِيكَ مَبْتَهْجِ  
 ونَحَدُّ بَقِيَّةَ مَا أَبْقَيْتَ مِنْ رَمَقِ      لا خَيْرَ في الحَبِّ إنْ أَبْقَى عَلى المُهْجِ

فهو قتيل الحب ، وهو قتل يغتبط به ، إذ يتيح له الاتحاد بمحبوبه ، فلا يفصله  
 عنه حجاب الجسد ، وإنه ليتقبل كل عذاب وكل ألم ووصب في سبيله .  
 إلا وصباً واحداً وألماً واحداً هما ألم البعد ووصب الهجران إلى الأبد . وإنه  
 ليضرع إلى ربه مخلصاً أن يأخذ البقية الباقية من رفقته وروحه ، حتى ينعدم  
 شعوره بكل شيء إلا شعوره بوجود ربه ، وحتى ينعم نعيماً باقياً بهذا الشعور ،  
 وحتى تتم له سعادته بالانمحاء في الذات الإلهية الأبدية . وما زال ابن الفارض غارقاً  
 في حبه ، وما زال يصوره بلغة الحب العذرى الضيقة التي تنوء بمعانيه الواسعة العميقة  
 على شاكلة قوله :

نِيْ دَلَالاً فَأَنْتَ أَهْلٌ لِّذَاكَ      وَتَحَكَّمْ فَالْحُسْنُ قَدْ أَعْطَاكَ  
 وَلِكَ الأَمْرُ فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ      فَعَلَى الجَمَالِ قَدْ وَلاَكَ  
 وَتَلَافِي إِنْ كَانَ فِيهِ اتِّتِلَافِي      بِكَ عَجَلٌ بِهِ جُعِلْتُ فِدَاكَ  
 فُقِّتَ أَهْلَ الجَمَالِ حُسْنًا وَحُسْنِي      فِيهِمْ فَاقَّةٌ إِلَى مَعْنَاكَ  
 يُحْشَرُ العَاشِقُونَ تَحْتَ لِوَايِ      وَجَمِيعُ المِلاَحِ تَحْتَ لِوَاكَ

ويبدو البيت الأول إنسانياً ، وكأنه بيت لمحِبٍ عذرى يصف محبوبته بالتيه

والدلال . ولكن لا نلبث أن نلتقى في الأبيات بشذا الحب الصوفي ، فمحبوبه له الأمر في الوجود كله يتصرف فيه كما يشاء ، ويتوسل إليه أن يعجل بتلفه وهلاكه . وهو لا يريد الهلاك الحقيقي أو التلف الحقيقي ، وإنما يريد انمحاءه فيه ، حتى يستنقذ له روحه من وجودها الأرضي أو الإنساني ، بحيث لا يصبح له شعور إلا بربه وجهه ، وينعدم فيه كل إحساس بشيء سواه . ويقول إن جماله لا يشبهه ولا يدانيه جمال ، إنه جمال رباني ، جمال الذات الإلهية الذي ظل شغوقاً به ، متغنيا فيه غناء حاراً حتى أصبح بحق يحمل لواء العاشقين ، وهو عشق طالما تجشم فيه الأهوال واحتمل الآلام ، حتى ليقول :

هو الحبُّ فاسلمُ بالحسِّ ما الهوى سهلُ      فما اختاره مُضنىُّ به وله عقلُ  
وعشُّ خالياً فالحبُّ راحتُه عنا      وأوله سُقمٌ وآخره قتلُ  
وإن شئتَ أن تحيا سعيداً فمتُّ به      شهيداً وإلا فالغرامُ له أهلُ  
فمن لم يمُتْ في حُبِّه لم يعِشْ به      ودون اجتناء النَّحلِّ ما جنتِ النَّحلُّ

ولا يريد ابن الفارض أن يعطل طريق العشق الإلهي ويصرف عنه عشاق الصوفيين ، وإنما يريد أن يعرفوا أنها طريق عسيرة مليئة بالعقاب والصعاب ، فأولها غناء وضنى وسقم وآخرها تلف وقتل ، وهو يريد بالقتل لحظات الشهود حين تتجلى على المحب الصوفي الأنوار الإلهية ، ويغيب عن حواسه ووجوده فلا يشعر بزمان ولا مكان ، وإنما شعور واحد يسيطر عليه هو انمحاءه في الذات العلية الذي طالما جاهد في سبيله ، بل طالما تعذب وتألَّم ، كما يتألَّم من يجمعون عسل النحل من لسع زنابيره . ولسنا نريد أن نسترسل في الاستشهاد بأشعار ابن الفارض وإنما نعرض أمثلة منها ، وبحق ظل المصريون يشغفون بأشعاره الصوفية منذ عصره إلى اليوم . وكان المنشدون على حلقات الذكر وفي الموالد يكثر من إنشادها للناس في القاهرة وما وراء القاهرة. وتجرّدت في أثناء الحروب الصليبية والتتارية جماعة من شعراء الصوفية وغيرهم لنظم قصائد بديعة في مديح الرسول—صلى الله عليه وسلم — بل إن من الشعراء من نظم في مديحه دواوين مفردة مثل الصرصرى الضرير شاعر العراق ، ويقال إن مدائحه فيه بلغت عشرين مجلداً . وهذه المدائح الشعر وطوايحه

النبوية الكثيرة التي نُظمت في العصر ، سواء في العراق أو في الشام أو في مصر لم يكن يُراد بها المديح النبوي من حيث هو ، وإنما كان يُراد بها وضع السيرة العطرة لرسول الله عليه السلام وجهاده لمشركي الجزيرة وفي نشر الإسلام نصب أعين المسلمين ، ليستشعروها في جهادهم لحملة الصليب والتتار حميةً للدين الحنيف وحماء ، وحميةً لصاحبه وهده . ومعنى ذلك أنها لم تكن مديحاً بالمعنى المألوف وإنما كانت استنفاراً للمسلمين في كل مكان ليستخلصوا ديار الإسلام من المعتدين الآثمين ، وليمزقوا جموعهم شر ممزق . وأروع هذه المدائح أو قل الاستنفارات عامة قصيدتنا البوصيري الشاعر المصري : الحمزية والميمية اللتان طبقت شهرتهما الآفاق . وكان البوصيري من أتباع أبي الحسن الشاذلي الصوفي الكبير المشهور ومريديه ، وقصيدته أو قلدته الأولى الحمزية في نحو أربعمئة وخمسين بيتاً ، وقد سماها « أمّ القرى في مدح خير الرّوى » وشطّرها وعارضها كثيرون من بعده ، آخرهم شوقي ، وهو يستهلها بقوله :

كيف ترَقَى رُؤْيِكَ الْأَنْبِيَاءُ      يَا سَمَاءَ مَا طاولَتْهَا سماءُ  
لم يساووك في عُلَاك وقد حا      ل سَنَا منك دونهم وسَنَا  
إنما مثَلُوا صِفَاتِكَ لِلنَّاءِ      يس كما مثَلَ النجومَ الماءُ  
أنت مِصْبَاحُ كُلِّ فَضْلٍ فما تص      درُ إلا عن ضَووتِكَ الْأَضواءُ

وواضح أن البوصيري يرفع في فاتحة قصيدته الرسول صلى الله عليه وسلم فوق جميع الأنبياء الغارقين في سَنَا نوره ، والممثلين في كل زمن وعصر صفاته للناس ، متجلية في كل منهم كما تتجلّى النجوم في الماء . وإن كل ضوء في رسالة رسولٍ ليستمد من مصباحه الخالد ، مصباحه الرباني . ويمضى البوصيري ، فيصور معجزات الرسول الخارقة ، عارضاً سيرته الزكية مرحلة بعد مرحلة . ويناقش حملة الصليب في نظرية التثليث واليهود في نظرية البداء على الله وما تؤدي إليه من أن علم الله قاصر لا يحيط بالأشياء ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم ! ويسجل عليهم قتلهم للأنبياء وعداوتهم للإسلام وكيدهم له منذ ظهوره ونقضهم للعهد التي كانت بينهم وبين الرسول عليه السلام . وهو في تضاعيف ذلك كله يجسد جهاد الرسول وأصحابه لأعداء الإسلام من المشركين واليهود حتى يدلع الحمية في

قلوب معاصريه لسحق حملة الصليب سحقاً لا يُبقَى منهم ولا يَندُر . وتلقّف منه  
 المنشدون على حلقات الذكر لا في بيئة طريقته الشاذلية وحدها ، بل في جميع  
 الطرق الصوفية بمصر ، هذه القصيدة ، وأخذوا ينشدونها مترنمين بها ، حتى  
 يستحيل المصريون شواظاً آدمياً يأتي على الصليبيين والتتار جميعاً . وأهم من هذه  
 القصيدة وأروع القصيدة الثانية الميمية المسماة بالبردة التي بهرت معاصريه  
 ومن جاء بعدهم إلى اليوم ، وقد سُرحت وعورضت مراراً وتكراراً ، وترجمت  
 إلى اللغات الفارسية والتركية والأوربية ، وعارضها شوق بميمية مشهورة له .  
 ولا يزال المصريون إلى اليوم يرددون أبيات بردة البوصيري من مثل قوله :

أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانِ بَدَى سَلَمٍ      مزجت دَمْعاً جَرَى من مُقْلَةٍ بِدَمٍ  
 يالائمي في الهوى العذرى معذرةً      منى إليك ولو أنصفت لم تلم  
 محضتني النصح لكن لست أسمعهُ      إن المحب عن العُدالِ في صَمَمٍ

ويملك هذا الهوى العذرى النبوي على البوصيري كل أهوائه وعواطفه وأحاسيسه  
 ومشاعره ، وكأنما يريد أن ييث الرسول عليه السلام حبه في أقوى صورة من صور  
 الغرام الظامى الذى لا تعمد جذوته في أطواء الفؤاد أبداً . وتحين منه النفاتة إلى  
 نفسه ، ويريد أن يصور تواضعه ، فيتهم نفسه ، وهو اتهام يبتغى به أن يسمو  
 إلى أعلى قمة للطهر ، يقول :

والنفس كالطفل إن تُهمله شب على      حُب الرضاع وإن تَقَطَّمه يَنْفَطِمِ  
 وخالف النفس والشيطان وأغصهما      وإن هما محضاك النصح فاتهم

ويأخذ في بيان فضائل الرسول عليه السلام ، وكيف أنه يفوق جميع الرسل  
 في خلقه وفي كماله ، ويقول إنه لا يعتقد فيه لا هو ولا غيره من المسلمين  
 ما يعتقدُه النصارى في عيسى من ربوبيته ، ويردّد أنه النور السارى في الكون  
 الذى يقبس منه الرسل جميعاً ، وكأنه شمس وهم كواكبها ، يقول :

دَع ما ادعته النصارى في نبيهم      واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم  
 وانسب إلى ذاته ما شئت من شرف      وانسب إلى قدره ما شئت من عظم

فكلُّ آيٍ أتَى الرُّسُلُ الكرامُ بها      فإنما اتصَلتْ من نورِهِ بهِم  
فإنه شمسٌ فضِّلَ همٌ كواكبُها      يُظهِرنَ أنوارَها للناسِ في الظُّلمِ

ويصورُّ البوصيرى معجزات الرسول الباهرة ، وفي مقدمتها القرآن الكريم ، كما يصور جهاده وجهاد أصحابه لأعداء الإسلام ، حتى استسلموا عن يَدِهِ وهم صاغرون ، متخذاً من ذلك شعاراً لجهاد الصليبيين حتى تمحقهم الجيوش العربية محققاً . ولم تقف تلك القصيدة الرائعة وأختها الهمزية السالفة عند دورانها في حلقات الذكر وحفلات الأعياد والموائد ، بل اتسع انتشارها في جميع الأوساط المصرية والشامية ، إذ تجرّدت جماعات من الناس للطواف بهما في ديار مصر والشام ، منشدة لهما على الطبل والمزمار .

ولم يمثّل الشعر في مصر حينئذ الانطباعات الروحية وحدها في نفوس الشعب وما تثير من حمية للدين الحنيف ، بل مثّل أيضاً ما اشتهر به الشعب المصرى من ميل إلى الفكاهة وشغف شديد بها ، وهو ميل متأصل فيه منذ العهود القديمة : عهود الفراعنة ، وقد درسنا هذه الظاهرة في كتابنا « الفكاهة في مصر » واستعرضناها فيه على مر الزمن . وبمجرد اختلافك إلى أى مجتمع للمصريين في عصرنا سواء في أحد النوادي أو في إحدى المقاهى فستجد الفكاهة على كل لسان ، وخاصة فكاهة النكت وما يتصل بها من التورية التى أشاعتها مصر في الشعر العربى . وهى تقوم على ضرب من الخفاء إذ تصبح الألفاظ كالأشراك أو الشباك ، يتعرّ فيها الناس ، فيضحك من حولهم ، معجبين بالشاعر الذى عرف كيف يتّصّبها . ونكتفى ببعض توريات لابن نباتة ، فمن ذلك أن صديقاً له طلاق زوجته . وكانت تسمى دُنْيَا ، فبادره بقوله :

ظلمتَ دُنْيَاكَ وطلّقتَها      فرُحّتَ لا دُنْيَا ولا آخِره

وطرافة التورية كما هو واضح فى أنها تحتاج يقظة وذكاء ، وكان الشاعر يسرق المعنى القريب ليؤدى به معنى بعيداً ، ومن ذلك قوله :

ومولعٍ بِفِخْاحٍ      عِـدْها      وشـبـاكِ

قالت لى العينُ ماذا يصيد ؟ قلت : كراكى

والكراكى : طير ، وهو يريد الكرى أى النوم . وأهداه صديق طائفة من الديوك ، فقال يشكره حامداً له هديته :

وصلتُنا ديوك بِرِّك تزهو بوجوهٍ جميلةٍ مُستجاده  
كل عُرفٍ يروق حسناً وإنى أرتجى أن تكون (عُرُفاً) وعاده

وعُرفُ الديك معروف ، وهو يريد به فى الشطر الأخير ما تعارف عليه الناس من العادات ، قاصداً إلى النكتة . وأهدى إليه صديق آخر تمرّاً رديئاً فكتب إليه :

أرسلت تمرّاً بل نوى فقبيلتهُ بيَدِ الوداد فما عليك عتابُ  
وإذا تباعدتِ الجسمُ فودنا باقى ونحن على (النوى) أحبابُ

وهو لا يريد فى الشطر الأخير نوى التمر . وإنما يريد النوى والبعد والفرق . وفى كتاب خزانة الأدب للحموى طائفة كبيرة من توريات المصريين فى أشعارهم ، وهى تصور مدى انطباع هذا الجانب الفكه فى الروح المصرية وفى الشعر المصرى . وجانب ثان فى الفكاهة المصرية هو جانب المزول ، إذ نرى شاعراً يتحدث وكأنما ألغى عقله ، إذ يعرض بديهيات فى شكل معارف خطيرة ، أو يخلط فى كلامه تخطيط الغافلين أو النائمين ، وقد نظم شاعر يسمى ابن سودون ديواناً فى هذا المزول سماه « نزهة النفوس ومضحك العبوس » ومن قوله فيه :

إذا ما الفتى فى الناس بالعقل قد سما تيقن أن الأرض من فوقها السما  
وأن السما من تحتها الأرض لم تزل وبينهما أشياء إن ظهرت تُرى  
وكم عجب عندى بمصرَ وغيرها فمصرُها نيلٌ على الطين قد جرى  
وفى نيلها من نام بالليل بله وليست تبلى الشمس من نام فى الضحى

وينظم فى مثل هذا المزول ديواناً بأكمله .

وجانب ثالث هو جانب المزاح والدعابة ، وقد تصبح الدعابة لازمة أو ساخرة ،

ومن كان يكثر في أشعاره من الدعابة والمزاح الشاعر الملقب بالجزار ، وكان يشتغل بالجزارة فعلا ، ومن دعاياته لأبيه ، وكان قد تزوج في شيخوخته من امرأة متقدمة في العمر :

تَزَوَّجَ الشَّيْخُ أَبِي شَيْخَةً      لَيْسَ لَهَا عَقْلٌ وَلَا ذِهْنٌ  
لَوْ بَرَزَتْ صَوْرَتُهَا فِي الدُّجَى      مَا جَسَرْتُ تُبْصَرَهَا الْجِنُّ  
كَأَنَّهَا فِي فَرْشِهَا رِمَّةٌ      وَشَعْرُهَا مِنْ حَوْلِهَا قُطْنٌ  
وَقَائِلٍ قَالَ : فَمَا سِنَّهَا ؟      فَقُلْتُ : مَا فِي فَمِهَا سِنَّ

وفي هذه البيئة المصرية المكتظة بالفكاهة والدعابة ألف ابن دانيال ثلاث مسرحيات كانت تمثل على مسرح خيال الظل المعروف في تلك العصور ، وكلها مسرحيات هزلية ، وهي : طيف الخيال ، وعجيب وغريب ، ومتميم . وتدور أولاها على موضوع الخاطبة والدور الذي كانت تلعبه وما كان يحدث فيه من أغلاط في تبين حقيقة الزوج والزوجة ، ونكتفي بعرض أبيات منها يشكو فيها الزوج فقره وبؤسه شكوى هزلية ، يقول في تضاعيفها :

أَمْسَيْتُ أَفْقَرَ مِنْ يَرُوحُ وَيَعْتَدِي      مَا فِي يَدِي مِنْ فَاقِي إِلَّا يَدِي  
فِي مَنْزِلٍ لَمْ يَحْوِ غَيْرِي قَاعِدًا      فَإِذَا رَقَدْتُ رَقَدْتَ غَيْرَ مَمْدِدِ  
وَتَرَى الْبَعُوضَ يَطِيرُ وَهُوَ بَرِيشَةٌ      فَإِذَا تَمَكَّنَ فَوْقَ عِرْقِي يَنْفِصِدِ  
وَالْفَارُ يَرْكُضُ كَالْخَيْولِ تَسَابِقَتُ      مِنْ كُلِّ جَرْدَاءِ الْأَدِيمِ وَأَجْرِدِ  
وَتَرَى الْخَنَافَسَ كَالزَّنُوجِ تَصَقِّفَتُ      مِنْ كُلِّ سَوْدَاءِ الْأَدِيمِ وَأَسْوَدِ  
هَذَا وَلِي ثُوبٌ تَرَاهُ مُرَقَّعًا      مِنْ كُلِّ لَوْنٍ مِثْلَ رِيْشِ الْهُدَيْدِ  
وَلَكَيْفَ أَرْضِي بِالْحَيَاةِ وَهَمَّتِي      تَسْمُو وَحَظِّي فِي الْحَضِيضِ الْأَوْهَدِ

وما يصور بوضوح صلة الشعر العربي الوثيقة حينئذ بالشعب المصري وطبقاته الدنيا أن كثيرين من شعرائه كانوا من ذوى الحرف والصناعات مثل ظافر أكبر شعراء العصر الفاطمي وكان حدّاداً ، ومثل الجزار الذي مرّ ذكره ، ومثل معاصره الحمّامى وكان صاحب حمام ، ومثل معاصرهما الورّاق الكتّيبى ،

والتلاثة جميعاً توريات كثيرة بأسمائهم وحرفهم .

وتلقانا في الأندلس بأقصى الغرب هذه الظواهر التي تحدثنا عنها في مصر والشام والعراق والتي فسحت للطوايح الشعبية في الشعر العربي ، وأول ما يلقانا من ذلك أشعار الأندلسيين في مديح أمرائهم وبيان بلائهم مع شعوبهم في حروب الإسبان المسيحيين . ومنذ وطئت أقدام العرب هذه الديار البعيدة ظلت الحروب ناشبة بينهم وبين مسيحيي الإسبان ، وظل الصراع بين الطرفين قائماً ، وقد فتح المسلمون بلاداً مسيحية أخرى وغير مسيحية ، ولم ينشب بينهم وبين أهلها هذا الصراع الحاد العنيف الذي نشب بينهم وبين الإسبان والذي ظل قروناً متعاقبة متطاولة ، بالغاً أقصى حدود العنف . وطوال هذا الصراع كان الشعراء يصدرن عن روح الشعب في تمجيد أمرائه وأبطاله في المعارك الدامية الطاحنة ، وكمن من أمير أموى أبلي بلاء حسناً في عصر سيادة قرطبة ضد أعداء الإسلام والعروبة ، ومن له في ذلك القُدح المعلّى عبد الرحمن الناصر ، وقد أحال زمنه الذي امتد نحو خمسين عاماً إلى حروب ضد الثائرين عليه في الداخل والخارجين عليه من الإسبان المسيحيين ، ولابن عبد ربه أرجوزة طويلة يمجّد فيها فتوحه في السنوات العشرين الأولى من حكمه . وبخاصة فتحه الأول للمنتلون ، وقد ملك فيه سبعين حصناً ، وفيه يقول :

ثم انتحى جَيَّانَ في غَزَاتِهِ      بعسكِرٍ يُسَعِّرُ من حُمَاتِهِ  
فاستنزل الوحش من الهضابِ      كأنما حُطَّتْ من السحابِ  
فأذعنت مُرَّاقَهَا سِراعاً      وأقبلتْ حصونُها تَدَاعَى

ويسعر : يوقد . وأكبر بطل بعده في العهد الأموي هناك المنصور بن أبي عامر حاجب حفيده هشام المؤيد ، وله أكثر من خمسين غزوة انتصر فيها جميعاً ، ومن أهمها غزوة «شتياقوب» في إقليم جليقية بأقصى الشمال الغربي لإسبانيا ، وهي من أقدس بقاع المسيحية الإسبانية لكنيستها المسماة باسمها «كنيسة القديس يعقوب» أو «شتياقوب» التي كان يحج إليها الإسبان . وشهد ابن درّاج هذه الواقعة وهزيمة ملك هذه الأنحاء فيها المسمى برموند ملك جليقية وليون ، وفي ذلك يقول من قصيدة طويلة في مديح المنصور بن أبي عامر مشيراً إلى انقضاء

الكنيسة وما أصابها في أثناء الحرب من الدمار .

لقد فصمتَ عَرَى دِينِ الضلالةِ من  
 مما اضطَفَّتْ عَبْدُ الطاغوتِ واعتقدتْ  
 من كلِّ مُهْدٍ إلى أركانِ بِيَعْتِهِ  
 قد طالما أَحَقَّتِ الأملأُكُ أَرْجُلُهَا  
 فَسُمَّتَهُ جاحماً للنارِ ما بقيتْ  
 يا حُسْنَ مَرَأَى الهُدَى من قبحِ منظومِ  
 وعاذِ « بِرْمُنْدُ » منه بالفرارِ وكمِ  
 مستخفياً بظلامِ الليلِ منك فإنِ

ويقال إن المنصور سَوَى لنفسه من غبار غزواته الكثيرة لَسِنَّةَ وأمر أن  
 توضع تحت رأسه في قبره تقرباً إلى الله . ونمضى إلى عصر أمراء الطوائف : حيث  
 تغلب على كل بلد كبيرة في الأندلس أمير ، وبذلك أصبحت الأندلس أندلسات  
 كثيرة ، وطمع فيها أذفونش ابن قَرْدَلْتَنْد وغيره من أمراء الشمال المسيحيين ،  
 واستطاع أذفونش الاستيلاء على طليطلة بعد مقاومة عنيفة وكان قد أخذ يغير بجيوشه  
 من البشكنس والجلالقة والفرنجة على بلاد الأندلس ، يخرّب وينهب ويقتل ويسبي ،  
 كما أخذ يفرض عليها الإتاوات ، مما اضطر المعتمد بن عباد أمير إشبيلية وغيره من  
 أمراء الأندلس إلى استصراخ يوسف بن تاشفين أمير المرابطين في المغرب كي ينجدهم .  
 ولبى يوسف بجيوشه المغربية الدعوة . وعبر مضيق جبل طارق إلى الأندلس .  
 واجتمعت جيوشه المغربية مع الجيوش الأندلسية في الزلاقة من إقليم بَطْلَمْيُوس ودارت  
 معركة حامية الوطيس بين تلك الجيوش وجيوش أذفونش الكثيفة من الفرنجة والجلالقة  
 والبشكنس ، ودارت على أذفونش وجيوشه الدوائر ، فقتل منها عشرات الألوف ،  
 غير أنه استطاع الفرار والنجاة ، وفي ذلك يقول عبد الجليل بن وهبون :

نَصّاً أَدْرَاعَهُ وَاجْتَابَ لِيلاً      يُوَدُّ لَوْ أَنَّهُ فِي الطولِ عَامُ  
 سَتَسَأَلُكَ النِّسَاءُ وَلَا رِجَالُ      فَخَبِّرْ مَا وَرَاءَكَ يَا عَصَامُ

ونصا : خلع ، واجتاب : لبس . ومن العجب أن ابن تاشفين لم يتابع بحيشه الفتوح في الأندلس مستأصلا شأفة الأعداء بعد هذا النصر العظيم ، بل عاد إلى بلاده أو دياره . ولكن على كل حال كان لهذا النصر أثر بعيد إذ أخصر ضياع الأندلس نهائيا أكثر من أربعة قرون .

ومن أكبر الأدلة على أن الشعر في الأندلس حمل الطوابع الشعبية في تلك البيئة العربية البعيدة أننا نجده يمثل نورات العامة ضد الحكام حين يجورون عن القصد ، ولعل أول ما يلقانا من ذلك ثورة الفقهاء بقرطبة على الحكم الربضي أميرها وأمير الأندلس المتوفى عام ٢٠٦ للهجرة ، فقد أكره الفقهاء في الثورة عليه من الشعر الذي كانوا ينشدونه وتنشده العامة معهم في ثورتهم مطالبين الحكم بتخليه عن الإمارة والسلطان . ومن أكبر الثورات التي حدثت هناك ثورة أهل غرناطة على اليهود ، وكان أحدهم - ابن النغرلة - اتخذه بعض أمرائها من بنى زيرى الصنهاجيين وزيراً له ، فولّى طائفة من اليهود شيعته على أعمالها وخراجها ، فامتلاً صدر أبي إسحق الإلبيري المتوفى سنة ٤٦١ غيظاً وموجدة ، فنظم قصيدة ملتبهة أشعلت ثورة الغرناطيين على اليهود وابن النغرلة ، وفيها يقول :

ألا قلّ لصنّهاجة أجمعين	بدور الزمان وأسدّ العرين
لقد زلّ سيدكم زلّة	تقرُّ بها أعين الشامتين
تخير كاتبه كافرًا	ولو شاء كان من المسلمين
فعرّ اليهود به وانتخوا	وتاهوا وكانوا من الأرذلين
ونالوا منهاهم وجازوا المدى	فحان الهلاك وما يشعرون

وشاعت القصيدة على كل لسان ، وثارت غرناطة وصنهاجة على ابن النغرلة اليهودى فقتلوه . وكانت العامة تردد أبياتها في ثورتها وتهتف بها وتصيح ، وكأنما فصلت من أفئدتها ومشاعرها وغضبها وسخطها الشديد .

وربما كان أهم موضوع احتدمت فيه مشاعر الأندلسيين على اختلاف طبقاتهم وتمثلته أشعارهم رثاء المدن التي كان يستولى عليها المسيحيون الإسمان ، إذ كان سكانها يرحلون عنها حين يستولون عليها ويخرجون منها باكين عليها

بكاء حاراً، وهو بكاء شارك فيه الشعراء ، بل شارك فيه جميع الأفراد، مستشعرين العاطفتين : الوطنية والدينية ، واستحالت أسراب كثيرة من دموعهم وزفراتهم شعراً حماسياً ، لا يُقصدُ به ظاهره من رثاء تلك الأوطان الساقطة في أيدي الإسبان ، بل يقصد به ما هو أهم من ذلك وأخطر ، يُقصدُ به استثارة الحمية في نفوس المسلمين في المغرب وما وراء المغرب ، كى يستخلصوا من الإسبان المدن الساقطة ويغسلوا عار جرائم العدو وتقتيله الأطفال والشيوخ والنساء . وكان من أوائل المدن التي استولى عليها الإسبان طَلَيْطَلَة ، ونجد شاعراً مجهولاً يستصرخ المسلمين لاستنقاذها وردّها إلى الإسلام ودياره ، مستثيراً إلى أقصى حد حميتهم لدينهم الحنيف ولِعرضهم ، متفجعاً أقوى تفجع ، على هذا النمط .

طَلَيْطَلَة	أَباح الكُفْرُ منها	حِماها ،	إِنَّ ذَا نَبَأٍ كَبِيرُ
مَساجِدُها	كَنائسُ أَيْ قَلبِ	على هذا	يَقِرُّ وَلَا يَطِيرُ
أُذِيتْ	قاصِرَاتُ الطَّرْفِ كَانَتْ	مصوناتٍ	مَساكِنِها القُصور
خُدُوا	ثَارَ الدِّيانَةِ وانصُرُها	فقد حامت	على القَتلى النُّسورُ

ويمضى صاحب القصيدة فيصور كيف انتهكت الحرمات والحرائر المصونات صائحاً يا للإسلام ويا للعروبة ، مستثيراً الحفيظة للأخذ بالنار في لوعة شديدة . وسرعان ما تكفل يوسف بن تاشفين بأذفونش وجنده ، ولكنه رضى من النصر العظيم بالإياب دون أن يجنى ثماره ويأخذ طليطلة من يد أذفونش وصحبه . والقصيدة شعبية خالصة ، فصاحبها مجهول ويبدو فيها بوضوح أنها تلقائية ، فليس فيها أى تكلف أو تعمل . وأخذت المدن العربية في الأندلس تنساقط في أيدي الإسبان ، ومع سقوط كل مدينة كان يتعالى صراخ الشعراء والشعب ، باكين بكاء مرّاً . ومن أشهر ما نظم الأندلسيون في بكاء تلك المدن نونية أبي البقاء الرُنْدِي ، التي نظمها حين استولى فرديناند الثالث على إشبيلية سنة ٦٤٥ للهجرة ، وهو لا يبكى فيها إشبيلية وحدها ، بل يبكى أيضاً المدن التي سقطت في أيدي الإسبان قبلها ، مثل قرطبة وجيَّان وشاطبة ومرسية وبلنسية ويتوجه إلى كل مدينة بالسؤال عن أختها باكياً بكاء حاراً المساجد التي استحالت كنائس ، ويستصرخ المسلمين من أهل المغرب وغيرهم بمثل قوله :

ياراكبين عتاق الخيلِ ضامرةً      كأنها في مجال السَّبِقِ عِقْبَانُ  
وحاملين سيوفَ الهِنْدِ مُرْهَفَةً      كأنها في ظلام النَّقْعِ نَيْرَانُ  
وراتعين وراءَ البَحْرِ في دَعَةِ      لهم بأوطانهم عِزٌّ وسلطانُ  
أعندكم نبأً من أهلِ أُنْدَلُسِ      فقد سَرَى بحديثِ القومِ رُكْبَانُ  
يا مَنْ لِدَلَّةِ قومٍ بعد عِزِّهِمْ      أحال حالَهُمْ كُفْرٌ وطغيانُ  
لمثل هذا يدوبُ القلبُ من كَمَدِ      إن كان في القلبِ إِسلامٌ وإيمانُ

ويظل أبو البقاء طويلاً يستصرخ المسلمين لنجدة الأندلسيين قبل أن تدمر كل قلاعهم وتسقط كل أعلامهم ، وهو استصرح يكتظ بنيران التباع شديد . واستحالت القصيدة مع الزمن إلى ما يشبه عملاً شعبياً ، فالأندلسيون يستظهرون أبياتها ، وكلما سقطت لهم مدينة زادوا فيها أبياتاً تصور محتتها ، حتى غرناطة التي كانت آخر معاقلمهم وحصونهم هناك والتي سقطت سنة ٨٩٧ للهجرة نجد لها أبياتاً ألحقت بالقصيدة تصور الفصل الأخير من فصول تلك المحن . وكأنما أصبحت هذه القصيدة ملحمة لصراع العرب المسلمين مع الإسبان المسيحيين نحو ثلاثة قرون ، حاملة لوعات الأندلسيين وحسراتهم على ضياع فردوسهم المفقود .

ويزدهر الغزل في تلك البيئة كما ازدهر في البيئات الأخرى ، وكان مما أثر في ازدهاره أن المرأة الأندلس كانت تتمتع بغير قليل من الحرية مما أتاح لها أن تعقد الندوات في دارها وأن يختلف إليها الشباب والرجال لتبادل الأحاديث الأدبية على نحو ما هو معروف عن ولادة بنت الخليفة المستكفي ، وكانت شاعرة جميلة خلابة ، فوقع في أسر حببها كثيرون في مقدمتهم ابن زيدون ، وقد استأثر حبها بقلبه وعواطفه ومشاعره ، وبادلته حباً بجد مدة ، ثم أخذت تهجره فلا تلقاه إلا من حين إلى حين ، ثم هجرته نهائياً . وله فيها أشعار كثيرة تصور هذه المراحل الثلاث ، مرحلة سعادته بالحب المتصل ، ومرحلة رجائه في عودة هذا الحب ورجوعه ، ومرحلة يأسه وفقدان أمله . وأروع غزلياته ما نظمه في المرحلتين الثانية والثالثة ، من مثل قصيدته التي يقول في تضاعيفها :

بِنْتُمْ وِينَا فَمَا ابْتَلَّتْ جَوَانِحُنَا      شَوْقًا إِلَيْكُمْ وَلَا جَفَّتْ مَاقِينَا  
 بِالْأَمْسِ كُنَا وَمَا يُحْشَى تَفَرُّقُنَا      فَلَاآن نَحْنُ وَمَا يُرْجَى تَلَاقِينَا  
 لَمْ نَعْتَقِدْ بَعْدَكُمْ إِلَّا الْوَفَاءَ لَكُمْ      رَأْيًا وَلَمْ نَتَقَلَّدْ غَيْرِهِ دِينَا  
 وَاللَّهِ مَا طَلَبْتُ أَهْوَاؤَنَا بَدَلًا      مِنْكُمْ وَلَا انصَرَفْتُ عَنْكُمْ أَمَانِينَا  
 لَسْنَا نَسْمِيكَ إِجْلَالًا وَتَكْرِمَةً      وَقَدْرُكَ الْمُعْتَلَى عَنِ ذَاكَ يُغْنِينَا  
 يَا جَنَّةَ الْخُلْدِ بَدُّنَا بِسَلْسِلِهَا      وَالْكَوْثَرَ الْعَذْبَ زُقُومًا وَغَسْلِينَا

والزقوم والغسلين : طعام أهل النار كما جاء في الذكر الحكيم . والقصيدية  
 يترقق فيها حنين رائع كما يترقق الماء في الغصن الرطيب ، وهي تصور لوعات  
 محب صادق ، ملأت محبوبته قلبه فتوناً ، ونعم في جوارها بجبها إذ صبت إليه  
 كما صبا إليها . أو قل وقع حبه في قلبها ، كما وقع حبه في قلبه ، ثم هجرته  
 واصطلى بنيران الهجران المحرقة . وكل أبيات القصيدة على طولها رائعة ، وقد سارت  
 بها الركبان ، كما قال القدماء ، وعارضها كثيرون كان آخرهم شوقي في نونيته  
 الأندلسية المشهورة . وقد تمثل شعراء الغزل في الأندلس طوابع الغزل العربي  
 القديم ومقوماته ، حتى العناصر البدوية : إذ يرددون دائماً ذكر الأطلال والأماكن  
 الحجازية والنجدية وإبل البادية وغزلانها وطلباتها وأزهارها وأشجارها ، وكأنهم  
 أرادوا أن يستوعبوا النسيب القديم وما به من حنين يعبث بالنفوس . وليس ذلك  
 فحسب ، فقد استوعبوا وتمثلوا بارعاً بالغزل العذرى العفيف ، بكل ما فيه  
 من طهر ونقاء ولوعة وشوق ظامئ ظمأ لا ينتهي ، وكل ما فيه من عفاف ومن  
 حرمان ومن قمع للغريزة النوعية ، ومن خير ما يصور ذلك قول صفوان بن إدريس :

بَدْرٌ لَوْ أَنَّ الْبَدْرَ قَبِيلَ لَهُ اقْتَرَحَ      أَمَلًا لَقَالَ أَكُونُ مِنْ هَالَانِهِ  
 صَاحِبَتُهُ وَاللَّيْلُ يُدْنِي نَحْتَهُ      نَارِينَ مِنْ نَفْسِي وَمِنْ وَجْنَانِهِ  
 وَضَمَمَتُهُ ضَمَّ الْبَخِيلِ لِلْمَالِ      أَحْنُو عَلَيْهِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ  
 أَوْثَقْتُهُ فِي سَاعِدِي كَأَنَّهُ      ظَبْيٌ أَخَافُ عَلَيْهِ مِنْ قَلْبَانِهِ  
 وَأَبَى عَفَافِي أَنْ أَقْبَلَ ثَغْرَهُ      وَالْقَلْبُ مَطْوِيٌّ عَلَى جَمْرَاتِهِ

فاعجب للمتعب الجوانح غلة يشكو الظما والماء في لهواته

وصفوان يذكر أنه أمضى مع خالبة لبه الفاتنة ليلة ، كانت فيها بين ذراعيه ، يضمها إلى صدره وقلبه ، وقد أحاط بها ساعدها المقتولان القويان ، والعفة مع ذلك نمد أجنحتها عليهما ، حتى القبلة حرّمها على نفسه ، وهو العاشق الولغان الذي تنقد جمرات حبه في قلبه ، ولا يستطيع لها إطفاء ولا إرواء ، مع أن مياه الحب ليست في يده فحسب ، بل تكاد تكون في لهواته ، ولكنه لا يستطيع أن يتجرعها ، عفة لا تماثلها عفة .

وكان مما عمل على نشر الشعر في الأندلس وذيوعه غزلا وغير غزل نهضة الغناء هناك لا في الأعياد والمواسم فحسب ، بل على مدار الليالي والأيام . وعن بعض الرواة من أهل المشرق قال : « كنت بمدينة مالقة من بلاد الأندلس سنة ست وأربعمائة ، فاعتلت بها مدة انقطعت فيها عن التصرف ، ولزمت المنزل ، وكان يمرّ ضنى حيثذ رفيقان كانا معي يلمان من شعّتي ويرفقان بي ، وكنت إذا جنّ الليل اشتد سهرى وخفقت حولي أوتار العيدان والطنابير والمعازف من كل ناحية ، واختلطت الأصوات بالغناء فكان ذلك شديداً على ، وأودّ لو أجد مسكناً لا أسمع فيه شيئاً من ذلك ويتعذر على وجوده لغلبة ذلك الشأن على أهل تلك الناحية وكثرته عندهم . ومالقة لا تشتهر بالغناء كما اشتهرت إشبيلية ، وكأنا كانت الأندلس العربية دار غناء كبيرة . وهي دار أعدت إعداداً واسعاً لانتشار شعر الغزل خاصة . ولم يكن الغزل هناك يغنى في المدن العربية وحدها ، فقد كان يغنى في البيئات المسيحية في الشمال وخاصة في بلاطات أمراء الإسبان ، فقد وصف بعض الرواة مجلس غناء عند زوجة شانجة بن غرسية بن قرذند قائلاً : إنه كانت في المجلس عدة قيان مسلمات وأن إحداهن غنت على العود :

خليلى ما للريح تانى كأنما يخالطها عند الهبوبِ خَلوقُ  
أم الریحُ جاءتُ من بلادِ أحيبى فأحسبُها ریحَ الحبيبِ تَسوقُ

والخلوق : الطيب . وكان انتشار الغزل الفصيح لم يقف عند البيئات الأندلسية العربية ، بل تعداها إلى البيئات الإسبانية المسيحية .

وعلى نحو ما كان الغزل نشطاً كان شعر الزهد وما تبعه من شعر التصوف نشطين

بدورهما ، وكان لحياة الفقهاء والنسك أثر فيهما ، وعمل فيهما أيضا الجهاد المستمر في الأندلس ضد الإسبان المسيحيين ، مما جعل كثيرين يزورون عن الدنيا ومتاعها طالبين ما عند الله من ثواب الآخرة . فكانوا يرفضون الدنيا كما كانوا يطلبون الاستشهاد ، وجعلهم ذلك يعنون بأشعار الزهد المشرقية وخاصة أشعار أبي العتاهية التي تقوم في جمهورها على النظرة الكونية العميقة في الحياة والموت ، وقد جمع منها ابن عبد البر أكبر محدثي الأندلس في القرن الخامس طائفة كبيرة نُشرت مع بعض أشعار له باسم ديوان أبي العتاهية ولا نكاد نلم بشعر الزهد الأندلسي حتى نرى أثر أبي العتاهية واضحا فيه من مثل قول الزُّبَيْدِي :

تفكّر في الممات فعن قريب      يُنادى بالرحيل إلى الحساب  
وقدم ما تُرجى النفع منه      لدار الخلد واعمل بالكتاب  
ولا تغترّ بالدنيا فعما      قريب سوف تؤذن بالخراب

وبما يدل على شيوع الزهد هناك أن نجد شاعرا هو أبو إسحق الإلبيري الذي مرّ ذكره في ثورة غرناطة على اليهود ينظم ديوانا كله أشعار زهدية إلا قليلا ، وجميعها وعظ ودعوة قوية إلى رفض اللذات ومتاع الحياة وتخويف من الموت وما قد يعقبه من العذاب الأليم ، ومن شعره قصيدة في ثمانية وثلاثين بيتا جعل قوافيها جميعا لفظة النار ، محاولا أن يخرجها في كل بيت إخراجا جديداً في صياغة محكمة على نحو ما نرى في قوله :

ويئس لأهل النار في النار      ماذا يُقاسون من النار  
تنقذ من غيظ فتغلي بهم      كمرجلي يغلي على النار  
وكلهم معترف نادم      لو تقبلُ التوبة في النار

وتمتاز زهدياته بكثير من الحيوية الدافقة والحرارة ، ونحس كأنما يحاول أن يستنقذ نفسه من شهوات الحياة ولذاتها قبل أن ينقذ غيره من سامعيه ، حتى نحس أحيانا كأنها عالقة بنفسه ، وهو يحاول بكل جهده أن يخلص منها ، أو قل كأنما يريد أن يصور الضعف الإنساني في الناس ، على نحو ما نرى في قوله :

لو كنتُ في ديني من الأبطال ما كنتُ بالواني ولا البطل  
وليسْتُ منه لأمةً فضفاضةً مسرودةً من صالح الأعمال  
لكنني عطلتُ أقواسَ التقى من نبيلها فرمتُ بغير نبال

واللأمة الفضفاضة المسرودة : الدرع السابغ المنسوج نسجاً محكماً . وكان طبيعياً أن يكثر الشعراء في هذه البيئة المحاربة المجاهدة قرونًا طويلاً من أشعار المناجاة لله ، وللسهيلي شارح السيرة النبوية بكتابه « الروض الأنف » مناجاة مشهورة لله ، يقول فيها :

يا مَنْ يرى ما في الضمير ويسْمَعُ أنتَ المَعْدُ لكلِّ ما يُتَوَقَّعُ  
يا مَنْ يُرَجِّى للشدائد كلُّها يا مَنْ إليه المُشْتَكى والمَفْرَعُ  
يا مَنْ خزائنُ رزقه في قول كُنْ آمنُ فإن الخير عندك أجمعُ  
مالي سوى فقري إليك وسيلةً فبالافتقار إليك ربِّي أضرعُ  
مالي سوى قرعى لبابك حيلةً فإذا رددتَ فأى بابٍ أقرعُ

ومرّ بنا حديث عن شعر التصوف في مصر والعراق ، وطبيعي أن تشارك الأندلس فيه ، وقد شاركت بسهم وافر عن طريق ابن عربي وأمثاله ، وكان أبوه رجلاً صالحاً ، وتصادف أن تزوج امرأة ورعة ، فأقبل على سلوك الطريق مبكراً ، واتصل بكثير من شيوخ التصوف في موطنه ، ثم رحل بعد ذلك رحلات متصلة ، جابَ فيها العالم العربي جميعه ، إلى أن ألقى عصاه أخيراً بدمشق وبها ترفى ، وله مؤلفات صوفية كثيرة ودواوين مختلفة ، منها ديوانه ترجمان الأشواق وهو يصور فيه وجد الصوفي الذي لا يدانيه وجد ، وكله غزل شبيه بغزل العذريين وما فيه من ظمأ للقاء المحبوب ، غير أنه شرحه شرحاً سماه الذخائر والأعلاق من شرح ترجمان الأشواق أحال فيه هذا الغزل إلى رموز صوفية ، ولولا أنه صورها ما استطاع أحد أن يفهمها من ظاهر لفظه ، كقوله :

ليت شعري هل درّوا أيّ قلبٍ ملكوا  
وفسّوادى لو درى أيّ شغبٍ سلّكوا

## حَارَ أَرْبَابُ الْهَوَى فِي الْهَوَى وَارْتَبَكُوا

وواضح أن هذا غزل صريح ، ولو أنه لم يعن بفك رموز مثل هذه الأبيات بل الديوان كله لكان أولى له ، لأن الأبيات يظل لها اتساعها في التعبير والإيجاء بمعان غير محصورة . ولعل بيئة لم تكثر من المدائح النبوية كما أكثر الأندلس وخاصة في عصورها الأخيرة ، لأنها كانت تتخذ منها مدداً روحياً في مقاومة الإسبان المسيحيين ، وكان الشعب يكثر من حفظها وتلاوتها وتلاوة الأناشيد الصوفية وأشعار الزهد، وخاصة زهديات أبي إسحق الإلبيري الذي يقول فيها ابن سعيد مؤرخ الأندلس في كتابه المغرب إن للأندلسيين غراما بحفظها .

وفي كتب الأدب والتاريخ والجغرافية أخبار وروايات كثيرة تدل على أن الشعر كان يُنشد على كل لسان : على ألسنة النساء والرجال ، وقد تميزت هذه البيئة بكثرة من كنَّ فيها من الشاعرات مثل ولادة : وطن ترجمات في كتاب المغرب لابن سعيد وفي نفع الطيب للمقرئ، وهي ترجمات طريفة . ويخيل لمن يقرأ كتاب المغرب الذي وزع فيه شعراء الأندلس على بلدانها الكبيرة وقراها الصغيرة أنه لم تكد تخلو قرية من شاعر يتغنى لأهلها بشعره ويعنى فيه المغنون . ويذكر ياقوت في كتابه معجم البلدان أن كل شخص في مدينة شلب كان ينظم الشعر الفصيح ، حتى إن الفلاح السائر وراء محراثه كان إذا ألقى عليه شطر من الشعر أجازه سريعاً بإجازة بارعة . وكان الجوارى يتقنن نظمه بدورهن على البديهة ، وقصة المعتضد أمير إشبيلية وجاريتته العبادية مشهورة ، فقد سهر ليلة وحسبها نائمة ، فترنم بقوله :

تَنَامُ وَمُدْنِفُهَا يَسْهَرُ      وَتَضْبِرُ عَنْهُ وَلَا يَضْبِرُ

فأجابته على البديهة بقولها :

لَنْ دَامَ هَذَا وَهَذَا لَهُ      سَيَهْلِكُ وَجَدًّا وَلَا يَشْعُرُ

وروى الرواة أن ابنه المعتمد ركب في نهر إشبيلية مع وزيره ابن عمار ، وهو شاعر أندلسي مشهور ، وأعجب المعتمد ، وكان شاعراً بما صنعت الرياح بمياه النهر وما حركت عليه من أمواج حركة خفيفة ، فقال على البديهة

« صَنَعَ الرِّيحُ مِنَ الْمَاءِ زَرْدًا » . وطلب من ابن عمار أن يكمل البيت بشطر ثان ، فأرْتَج عليه . وكانت تستمع إلى حوارهما ، وهما يهْمَانُ بِرُكُوبِ النهر ، جارية من عامة الشعب من الغسّالات فقالت تَوًّا بِاسْمَةِ : « أَى دِرْعٍ لِقِتَالِ لَوْ جَمَدٌ » فتعجب المعتمد من حسن ما أتت به وتأمل فيها ، فإذا صورة حسنة فأعجبه فسألها : أمتزوجة أنت ، فقالت : لا ، فتزوجها وولدت له أولاده الأُمراء ، وكان اسمها « الرُّمَيْكِيَّة » فتسمت باسم اعتماد . ولعل من الطريف أن نذكر أنه كان بالأندلس شاعر ثرى يسمى ابن الملح بلغ من اهتمامه بالشعر والشعراء أنه لم يكتف بإكرامهم حين كانوا يقدون عليه ، إذ وقف عليهم رِيْع ضيعة له .

وكان بالأندلس ، كما كان بالعراق ، شعراء جَوَّالُونَ من أهل الكُدُيَّة والشحاذة الأدبية يطوفون بالبلدان يتكسبون بأشعارهم ، مما يدل على تعلق العامة بالشعر الفصيح وأصحابه ، منهم أبو عامر بن الأصيلي ، وكان كما يقول ابن بسام « جَوَابَةُ آفَاقٍ مَشْحُودَةِ الْمَدِيَةِ فِي الْكُدُيَّة » . وما يدل بوضوح على تغلغل الشعر في العامة بتلك البيئة أن نجد بين الشعراء غير شاعر من ذوى الحرف مثل يحيى الخزار بمدينة سَرَاقُسْطَةَ ، وكان يبيع اللحم بدكان له . ويحتشد الصبية والشباب على دكانه لسماع أشعاره ، ولامه بعض الوزراء - ويسمون في الأندلس بالحجَّاب - على احترافه القِصَابَةِ أو الخزارة ، فأنشد قصيدة طويلة مبيِّناً أنها أفضل من الوزارة استهلها بقوله :

تَعِيبُ عَلَيَّ مَا لَوْفَ الْقِصَابَةِ      وَمَنْ لَمْ يَدْرِ قَدْرَ الشَّيْءِ عَابَةٌ  
وَلَوْ أَحْكَمْتَ مِنْهَا بَعْضَ فَنٍّ      لَمَا اسْتَبَدَلْتَ مِنْهَا بِالْحِجَابَةِ

ومضى يصور كيف تتجمع الكلاب حول العظام والأشلاء التي يرمى بها ، وكيف يفتك في الأغنام والثيران بصوارمه البتارة . وكان يجوار أصحاب الحرف من عامة الشعب شعراء أميون لا يقرءون ولا يكتبون ، ومع ذلك يجيدون الشعر ويبرعون فيه مثل ابن جاخ الصباغ البَطْلَيْسِيُّوسَى ، وَيُرْوَى أَنَّهُ أَنْشَدَ الْمُعْتَضِدَ أَمِيرَ إِسْبِيلِيَةَ قَصِيدَةً افْتَتَحَهَا بِقَوْلِهِ :

قَطَّعْتَ يَا يَوْمَ النَّوَى أَكْبَادِي      وَصَرَفْتَ عَن عَيْنِي لِذَيْدٍ رُقَادِي

فأعجب به المعتضد . وزاد إعجابه به حين عرف أنه أمي ، فجعله رئيساً للشعراء في دولته ، وكانت أهم دولة في الأندلس بين دول ملوك الطوائف .